مكتبتنا العربية

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية تحكمية

تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الثالث	٣٢ ربيع الأول سنة ١٣٦٢	المجلد الرابع عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الادارة	الاشتراكات عن سنة
ميدان الأزهر	داخل القطر ٣٠٠
تليفون : ٨٤٣٣٢	لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠
الرسائل تكون باسم مدير المجلة	خارج القطر ٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤٣)

مكتبتنا العربية

فهرس

الجزء الثالث — المجلد الرابع عشر

			صفحة
الدروس الدينية — الدرس الثالث ...	بقلم	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	٩٧
السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة	«	حضرة الأستاذ مدير المجلة	١٠١
الفلسفة الاسلامية فى المغرب ـ ابن رشد	«	« « الدكتور محمد غلاب	١٠٦
وجوب التسوية بين الأولاد ـ فتوى	«	لجنة الفتوى	١١٠
كلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم ...	«	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	١١٣
عثمان بن عفان	«	« « « صادق عرجون	١١٥
الفلسفة فى الشرق	«	« « « محمد يوسف ...	١١٩
ذكرى الميلاد المحمدى	«	« « « أبو الوفا المراغى	١٢٢
الأسرة الغزالية — الامام أحمد الغزالى	«	حضرة الأستاذ على سالم النشار ...	١٢٥
وادى السعادة	«	صاحب العزة الأستاذ عبد السلام محمود	١٣٠
وقعة الفتح الأعظم « قصيدة » ...	«	حضرة الأستاذ الكبير أحمد محرم	١٣٤
دراسة القوى الباطنة للانسان ...	«	« « مدير المجلة	١٣٩
قدامة بن جعفر	«	« « عبد السلام أبو النجا	١٤٢

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » :

سيقت هذه الآية لبيان حال المؤمنين الذين استقاموا على الطريق الذى سنه الله لعباده ، فأدوا ما طلبه وندب اليه ، وتركوا ما نهى عنه .

والكمالات النفسية لا تعدو معرفة الحق لذاته ، ومعرفة الخير للعمل به ؛ ورأس المعارف معرفة الله سبحانه على ما هو عليه من صفات ؛ ورأس الأعمال الصالحة الاستقامة على الطريق السوى الذى سنه الله لعباده ، وهو المشار اليه بقوله سبحانه : « اهدنا الصراط المستقيم » ، وبقوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، وبذلك يعلم أنه ليس المراد هنا من قولهم ربنا الله ، مجرد التلفظ به ، بل المراد التحقق بمعناه وحصول العقيدة به . والدليل على ذلك قوله : ثم استقاموا ، فان ترتيب الاستقامة على القول دليل على أن المقصود به العلم اليقينى والمعرفة الحقة .

وقد جمعت الآية بين قسمى الكمالات النفسية ، أما معرفة الحق فقد أشير اليها بقوله : قالوا ربنا الله ، وأما معرفة الخير والعمل به ، فقد أشير اليها بقوله : ثم استقاموا .

وتفسير الاستقامة على هذا النحو بالأعمال الصالحة رأى جمهور من الصحابة والتابعين ، والآية على هذا الرأى تساوى قوله تعالى : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » ، وقوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » .

وقال الزمخشرى : استقاموا ، ثبتوا على الإقرار بربوبية الله ، ومن قال ربى الله فقد اعترف بأنه مالكه ومربيه ومدبره ومعبوده ، ومقتضى ذلك ولازمه أنه لا تزل قدمه عن طريق العبودية ، ولا يتخطاه فى العمل ، بل يلازم حدود الشريعة ، ويخلص لله فى أعماله .

وتفسير الاستقامة بالثبات على الاقرار وعدم الخروج عنه الى الشرك ، رأى للسلف أيضا ، لكن الزمخشرى جعله فى المآل راجعا الى التفسير الأول على اختلاف فى الطريق .

علاقة الملائكة بالأرواح الطاهرة علاقة ذاتية ، لاتحاد الجوهر وقرب الصفات ، وهى

مكتبتنا العربية

علاقة مستمرة فى الدنيا والآخرة ، وكما أن الشياطين وقرناء السوء يزينون للأشرار القبائح ، ويغوون الفجار ، ويلقون فى نفوسهم الوساوس ، ويخيلون لهم الأباطيل ، فكذلك الملائكة تمد المؤمنين العاملين المخلصين فيما يعن لهم ويطرأ عليهم من الأمور الدنيوية والدينية بما يشرح صدورهم ، ويرفع همهم وخوفهم وغمهم وألمهم ، ويلهمونهم الصواب وطمأنينة النفس ، وعدم الحزن على مافات ، وعدم الخوف مما هو آت ، والرضا بما تجرى به الأقدار بعد إحكام الأسباب . وعلى هذا فمعنى تنزل الملائكة عليهم ، هذا الاتصال وهذا الإلهام .

والخوف : غم يلحق لتوقع المكروه ، والحزن غم يلحق من فوات نافع أو حصول ضار . والبشارة : الإخبار بشىء سار .

والمعنى على هذا : أن الملائكة تلهم الأرواح الطاهرة عدم الخوف مما هم قادمون عليه فى الآخرة وعدم الغم على ما فات فى الدنيا من نفع وما أصاب من ضر ، وتبشرهم بالجنة التى وعدوا بها على لسان الأنبياء والرسل ؛ وقد تكون البشارة على هذا الوجه وحده ، وقد تكون إخباراً بالمشافهة عند الموت ، وعند البعث فى الآخرة .

﴿نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم﴾ :

إن كان هذا الكلام من الملائكة ، فمعناه : أنهم أعوان للعباد فى الدنيا بالهام الخير ، وفى الآخرة بتقديم أنواع الكرامة ، وإن كان من كلام الله فمعناه أنه هو ولى عباده الصالحين وناصرهم : « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » ، ينصرهم فى الدنيا ، ويتولاهم فى الآخرة بالرضوان ، وبما أعده لهم من النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وعلى كلا الأمرين ، فقد أخبر الله سبحانه عباده ووعدهم ، أو أخبرهم الملائكة بإذن الله أن لهم فى الآخرة ما يشتهون وما يدعون : أى يتمنون ، فلهم من اللذات الجسمية فواكه ، ولحم طير مما يشتهون ، وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، ولهم من اللذات الروحية ضروب من الكرامة والرضوان ، وأنواع من التجلى الربانى والسعادات الروحية التى لا تخطر على قلب بشر ، ولم ترها عين ولم تسمع بها أذن ؛ واللذات الروحية أشير إليها فى آيات كثيرة من القرآن نحو : « ورضوان من الله أكبر » ، ونحو : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

وقوله سبحانه : « نزلا من غفور رحيم » معناه : أن التحيات التى تقدم فى الجنة تقدم من مضيف كريم لضيوفه ، ذلك أن النزل ما يهيأ للضيف ، ويقدم إليه ، والمضيف الكريم يعنى

مكتبتنا العربية

بأضيافه ، يقدم لهم أحسن ما يقدر عليه ، ويعمهم بالألطاف والتحف ، وفى ذلك إشارة الى عظم ما يلقاه صالحو المؤمنين فى الدار الآخرة من العناية والكرامة .

﴿ومن احسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين﴾ :

أحسن الناس حالا من اتصف بأربع خصال : الإقرار باللسان ، والاعتقاد الحق ، والدعوة إليه بإقامة الحجة وحياطة العقيدة بما يلزمها من القوة إن اقتضى الأمر ذلك ، وملازمة الأعمال الصالحة . وهذه كلها مستفادة من هذه الآية ، لأن القول هنا يتضمن الاقرار والمذهب والعقيدة ، كما تقول : هذا قول أبى حنيفة ، أى رأيه ومعتقده .

وللسعادة مرتبتان : الأولى أن يكتسب الشخص من الصفات الفاضلة مابه يكون كاملا فى ذاته ، وهذه المرتبة تضمنها قول الله : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » ، والمرتبة الثانية أن يسعى إلى تكميل غيره ، وقد أشير إلى هذه المرتبة بقوله سبحانه : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله » الآية . وليست هذه الآية خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم بل تشمله وتشمل غيره من الدعاة ، نعم إنه رأس الدعاة ورأس المصلحين ، وله فضل البدء وفضل الاحتمال ، وفضل قوة العلم وقوة الروح ، وهو المتبوع وغيره تابع ، ولا يمكن أن يسمو أحد إلى مكانه ومنزلته .

﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى احسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم﴾ :

يعنى لاتستوى الخصلة الحسنة والخصلة السيئة فى الآثار والأحكام ؛ والدعوة إلى الله سبحانه حسنة وتركها سيئة ؛ الدعوة تقريب إلى الحق وإرشاد إلى الخير وإصلاح للمجتمع ، وتركها يؤدى إلى الفساد ، فلا يمنعك ماتراه من أذى المشركين وما تسمعه منهم ، نحو لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، وقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ، وقولهم : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، وقولهم : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، وقولهم : ساحر أو مجنون ، لا يمنعك هذا عن الدعوة التى هى حسنة ، ولاترتكب السيئة التى هى الاقلاع عن الدعوة ، فانك رسول ، ومن واجب الرسول أن يدعو ، وأن يحتمل الأذى فى سبيل الدعوة ، وألا يضجر ، ومن واجبه أن يصبر ، والله هو المعين على احتمال ذلك ، وقد أعد لك الأجر وادخر لك أحسن الجزاء .

وبعد أن أمره بالمثابرة على الدعوة ، أرشده إلى علاج ، هو قوله : « ادفع بالتى هى أحسن »

مكتبتنا العربية

الآية . وهناك طريق آخر هو أن الدعوة حسنة وأفعالهم سيئة ولا تستوى حسنتك وسيئاتهم ، فاذا اعترضتك سيئاتهم فادفعها بالتى هى أحسن ، وهى الحسنة ، ولا تدفعها بسيئة .

والزمخشرى رأى آخر فى تفسير التى هى أحسن ، قال : معناه : خذ بالحسنة التى هى أحسن من أختها ، فاذا اعترضتك حسنتان فى دفع السيئة ، فادفع بالحسنة التى هى أحسن من أختها ، مثلا : أساء اليك رجل ، فالحسنة أن تعفو عنه ، والحسنة التى هى أحسن أن تحسن اليه مكان الاساءة ، فاذا فعلت ذلك انقلب العدو المشاق مثل الولى الحميم مصافاة لك .

وهذا الارشاد والعلاج الذى بينه العليم الحكيم الخبير ، ليس خاصا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، بل يعم جميع الدعاة والمصلحين ، ولابد لكل داع من أن يستهدف للأذى وطعن الطاعنين وحسد الحاسدين وكيد الكائدين وسفاهة الجاهلين . والصبر على ذلك كله ، وعدم مقابلة السفه بالغضب ، والاضرار بالإيذاء ، يسبب استحياء الأعداء من أخلاقهم ، وترك أفعالهم القبيحة ، وأن ينقلبوا من العداوة إلى المحبة ، ومن البغض إلى المودة .

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ :

يعنى وما يلقى هذه الخصلة ويقدر عليها ، وهى مقابلة الإساءة بالاحسان ، إلا الذين صبروا على الصبر وكان الصبر خلقا ثابتا عندهم ، وإلا من وفقوا لحظ من الخير عظيم ، فهم الذين يقدرون على احتمال المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام ، وهؤلاء لذتهم فى مرارة الصبر أشد من لذة غيرهم بشفاء النفس بالانتقام .

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ :

النزغ والنخس : هو المس بطرف قضيب أو أصبع بعنف مؤلم ، وقد استعير هنا لوسوسة الشيطان الباعثة على الشرور .

يعنى : إذا شعرت بنخس الشيطان ليبعثك ويسوقك إلى ما لا ينبغى ويحرضك على الشر ، فالجأ إلى الله سبحانه واستعذ به من شر الشيطان ونزغه ، وامض على شأنك فى الخير ، ولا تطعه ، والله سميع يسمع الاستعاذة ، وعليم يعلم النيات ، ويعين على الخير ، ويساعد على دفع المكروه ؟

مكتبتنا العربية

السيرة المحمدية (١)

تحت ضوء العلم والفلسفة

غزوة يهود خيبر

—

قدمنا أنه كانت بقرب المدينة جاليات من بني إسرائيل هجروا مواطنهم تفاديا من الاضطهادات الدينية، ونزلوا الى صقع من الأرض بعيد عن المنازعات المذهبية، ليعيشوا هانئين بملتهم. فلما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم داعيا الاسلام، وناعيا عليهم وعلى جميع أهل الديانات انحرافهم عن الدين الحق، كان وقع ذلك أشد على اليهود من وقعه على العرب أنفسهم، لأن كتابهم صرح لهم فى آيات كثيرة منه بان بنى إسرائيل سيكونون فى مستقبل الزمان حكام الأمم، ومرشدى الشعوب القوية الى الحق، وأن الحرب ستبطل بين البشر، وسينبث فيهم روح جديد من وجوب التآخى والتعاون وحسن الزمالة، فيكون لهم دين واحد، وإله واحد تحت زعامة بنى إسرائيل. ولكن لما كان عدد اليهود فى بلاد العرب لا يكفى لمكافحة الدين الناشئ فى بلاد العرب، الذى يؤكد أنه المعنى بهذه البشارات، نشطوا لتأليب الجاهليين عليه، ومنوهم بالعون والتأييد، وقاموا لهم بما تعهدوا به، كما فعل بنو النضير وبنو قريظة، وقد مر ذكرهم فيما سبق.

وكان يهود خيبر الذين نحن بصددهم أشد من جميع إخوانهم تهييجا على الاسلام، فصمدا اليهم (١) النبي صلى الله عليه وسلم فى السنة السابعة من الهجرة. وخيبر تبعد عن المدينة نحو مائة وخمسين كيلو مترا الى الشمال الغربى منها. وكان بنو إسرائيل اتخذوا فيها ثلاث مجموعات من الحصون، وهى: حصون النطاة، وحصون الكتيبة، وحصون الشق؛ المجموعة الأولى مؤلفة من ثلاثة حصون، والثانية من اثنين، والثالثة من ثلاثة.

فلما كان المحرم من السنة السابعة للهجرة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصمود الى يهود

---

(١) مضت فترة طويلة لم نتابع فيها الكتابة فى هذه السيرة، كنا نشتغل فيها بدراسات أخرى رأينا أن نوفيها حقها، وكان ضيق المجال أكبر موجب علينا ذلك، فلما اتممنا ما كنا بسبيله عدنا الى إتمام تلك السيرة، راجين أن نبلغ منها الغاية التى رمينا اليها ومن الله نستمد القوة، ونستلهم السداد.

(٢) صمده وصمد له وصمد اليه، قصده، ويظن قراء الصحف اليوم أن الصمود يعنى المقاومة وهو خطأ.

مكتبتنا العربية

خيبر ، واستنفر ممن حوله من الأعراب ، الذين كانوا معه بالحديبية ؛ ولما اكتمل عدد الجيش ولى على المدينة أحد أصحابه ، وخرج قاصدا خيبر ؛ ولما وصل اليها ، رفع جنوده أصواتهم بالتكبير والدعاء ، فنهاهم صلى الله عليه وسلم عن الصياح قائلا لهم : « ارفقوا بأنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم » .

هنا يجب أن ننبه أن من مميزات الاسلام أنه دين آداب عالية ، ووقار ومدنية ، مرماه إصلاح القلب وتطهير الباطن ، بعيدا عن الحماسة التظاهرية ، والتقاليد العامية ، حتى فى المواطن التى قد يسمح كبار القواد لجنودهم بشئ من الخروج عن النظام ، تشجيعا لهم على خوض غمرات المعارك الطاحنة . وهى مميزات لو قوبلت بما يفعله بعض المسلمين اليوم من التحلق للذكر وقوفا ، وعلى قارعات الطرق ، ومن سير مواكب دينية تحت الأعلام ، فى حالة تصايح وتجاوب بالأناشيد ، لأخذ الانسان العجب من هذا الانحراف الذى ذهب بأصحابه الى الضد من الآداب الاسلامية العالية .

نعود الى متابعة السيرة فنقول : بدأ المسلمون بمحاصرة المجموعة الأولى من حصون خيبر وتسمى (النطاة) ، فعسكروا بعيدا عن مرمى النبل ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع نخيلهم ليحملهم على التسليم ، فأتموا قطع أربعمائة نخلة ، ولما لم يحملهم ذلك على الخضوع وآثروا الدفاع ، منع رسول الله القطع ، وأمر بالحملة على الحصن الأول ، فبدأوها بالمناضلة بالسهام ، ولبثوا على ذلك سبعة أيام لم ينالوا من عدوهم شيئا ، حتى كان ليل اليوم السابع ، فظفر حارس الجيش عمر بن الخطاب بيهودى خرج من الحصن متسللا ، فأتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم وقد تملكه الرعب ، فقال الأسير لمن حوله : إن أمنتمونى دللتكم على ما فيه نجاحكم . فأمنوه على نفسه . فقال : « إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب ، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم الى حصون الشق (وهى المجموعة الثالثة) ، وسيخرجون لقتالكم غدا ، فاذا فتح عليكم هذا الحصن غدا ، فانى أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات (١) ، ودروع وسيوف ، يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون ، فانكم تنصبون المنجنيق ، ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن ، فتفتحه من يومك » .

فلما كان الغد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم الراية لعلى بن أبى طالب وأمره أن يقاتل الاسرائيليين ، فتوجه من فوره للقائهم ، ولما تراآى الفريقان ، بدأ القتال على عادتهم بالمبارزة الفردية ، فخرج من اليهود ثلاثة رجال متعاقبين ، فقتل على منهم اثنين ، وقتل الزبير بن العوام الثالث ، ثم حمل المسلمون على خصومهم حملة صادقة فأزاحوهم عن مواقعهم ، ثم تبعوهم حتى

(١) هى آلة كان المقاتلون القدماء يتخذونها لنقب أسوار المدن والحصون المنيعة ، وهى عربة مغطاة ... الرجال ، ثم تدفع إلى جدران الحصون فيعملون على نقبها آمنين .

مكتبتنا العربية

لجأوا الى الحصن الثانى من مجموعة الحصون الأولى وكان اسمه (الصعب) ، ودخل المسلمون الحصن الأول فغنموا منه مقادير كبيرة من الخبز والتمر . ثم تابعوا مقاتلتهم فى الحصن الذى لجأوا اليه . فنافح عنه الاسرائيليون مستبسلين ، فارتد عنه المسلمون ، إلا الحباب بن المنذر وفرقة معه ، قاتلوا قتالا شديدا حتى هزموا أعداءهم واقتحموا عليهم الحصن ، فوجدوا فيه مقادير وافرة من الطعام وعلف الدواب . فاضطر اليهود الى اللجوء الى الحصن الثالث واسمه حصن قلة ، وتبعهم المسلمون اليه ، فاستصعب عليهم فحاصروه ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع دلهم يهودى على الجداول التى توصل الماء الى ذلك الحصن ، فقطعوها عليهم ، فاضطروا للخروج والمكافحة دونها ، فلم يقووا على رد المسلمين ، وانهزموا الى المجموعة الثالثة من الحصون وتدعى حصون الشق ، فتبعهم المسلمون اليها ، وقاتلوهم على أولها ، فخرج أهله وقاتلوا قتالا شديدا ، ولكن أبا دجانة الأنصارى تمكن وفرقة معه من اقتحام الحصن ، فوجد فيه المسلمون أثاثا كثيرا ومتاعا وغنما وطعاما ، وهرب المنهزمون منه الى الحصن الذى يليه من تلك المجموعة فامتنعوا فيه ، وكان أهله أشد قومهم مناضلة بالسهام ، ورجما بالحجارة ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابه بعض ذلك .

فاضطر المسلمون عند ذلك الى نصب المنجنيق الذى غنموه من اليهود ، فوقع فى قلوب مقاتلتهم الرعب ، وهربوا منه من غير كبير عناء .

ثم تتبع المسلمون خصومهم الى المجموعة الثالثة من الحصون ، وتدعى حصون الكتيبة ، وبدأوا بأولها فحاصروه عشرين ليلة ، ثم افتتحوه ، ومنه سبيت صفية بنت حيي بن أخطب ، سيد بنى النضير من القبائل اليهودية ، ثم سار المسلمون لحصار الحصنين الباقيين من تلك المجموعة ، فلم يقاوم أهلهما ، وسلموا طالبين حقن دمائهم ، والخروج من أرضهم بأهلهم وأولادهم ، غير آخذين من أمتعتهم إلا ثوبا على أجسادهم ؛ وغنم المسلمون من هذا الحصن أربعمائة سيف ، ومائة درع ، وألف رمح ، وخمسمائة قوس . وعثر المسلمون على حلى لحيي بن أخطب فيها أساور ودمالج وخلاخيل وأقرطة وخواتيم من الذهب ، وعقود من الأحجار الكريمة . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل كنانة بن أبى الحقيق لانكاره وجود هذه الحلى . ووجدت صحف من التوراة فسلمت لأصحابها .

ولما عاد المسلمون من هذه الغزوة الى المدينة ، قدم من الحبشة المهاجرون الذين بقوا فى الحبشة تحت قيادة جعفر بن أبى طالب ، وكان فيهم أبو موسى الأشعرى وجماعة من قومه ، بعد أن أقاموا فى بلاد الحبشة عشر سنين .

(الاستيلاء على فدك وصلح تيماء)

بعد رجوع النبى صلى الله عليه وسلم المدينة أرسل رسولا يطلب من يهود فدك

مكتبتنا العربية

الانقياد والطاعة . وفدك هذا حصن قريب من خيبر على بعد ست ليال من المدينة ، فصالحوه على أن يحقن دماءهم وأن يتجردوا هم من أموالهم .

ولما نمى الى يهود تيماء ، وهى قرية على ثمان مراحل من المدينة ، ماحل بيهود خيبر ، صالحوا النبى صلى الله عليه وسلم على دفع الجزية ، ومكثوا فى بلادهم لم يزعجهم فيها أحد .

فتح وادى القرى

بعد أن تمت للنبى صلى الله عليه وسلم كل هـذه الفتوح ، أرسل الى يهود وادى القرى يطلب اليهم الانقياد والطاعة ، فأبو القتال ، فقاتلهم المسلمون ، وهزموهم ، وحصلوا منهم على مغانم كثيرة ، وترك رسول الله الأرض فى أيدى أهلها ليزرعوها على شطر مما يخرج منها .

أربع سرايا

فى هـذه السنة وهى السابعة من الهجرة ، بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن رجالا من بنى هوازن يتصدون للمسلمين ، فأرسل إليهم ثلاثين رجلا تحت قيادة عمر بن الخطاب ، فلما علم المشركون بذلك لاذوا بالفرار .

ثم أرسـل فصيلة من الجنود تحت قيادة بشير بن سعد الأنصارى لقتال بنى مرة بجوار فدك ، فلما وصلوا الى محلتهم لم يجدوا أحدا فاستاقوا ما شيتهم ، وبلغ القوم ما حدث ، وكانوا فى الوادى فتعقبوا هذه الفصيلة حتى أدركوها ليلا وهى راجعة الى مكة بما غنمت ، فتراموا بالنبل ، ولما تنفس الصباح اقتتل الفريقان قتالا مرا حتى قتل أكثر رجال الفصيلة ، وجرح قائدهم بشير بن سعد جرحا بليغا ، فتحامل حتى أتى الى رسول الله فأخبره بما تم .

وأرسل رسول الله فصيلة من الجند الى أهـل الميفعة وهى بناحية نجـد ، تحت قيادة غالب بن عبيد الله الليثى ، فقاتلوا القوم قتالا شديدا .

وفى هذه الوقعة تصدى أسامة بن زيد لرجل من المشركين فلما تمكن منه ، وأدرك الرجل أنه هالك لا محالة ، لجأ الى ما ظنه أنه يدرأ عنه السيف ، وهو أن يقول لا إله إلا الله ، فأدرك أسامة أن الرجل لم يقل ذلك إلا تخلصا من القتل ، فلم يعبأ بما قال وقتله .

فلما رجعت هذه الفصيلة الى المدينة ، وأخبر رجالها رسول الله بما حـدث من أسامة ابن زيد ، استقدمه إليه وقال له : أتقتله بعد أن قال لا إله إلا الله ، فكيف بلا إله إلا الله ؟

قال أسامة : يا رسول الله إنما قالها متعوذا من القتل .

فقال له صلى الله عليه وسلم : فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

قال أسامة يا رسول الله استغفرلى :

قال عليه السلام : فكيف بلا إله إلا الله ، وما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم ، ونزل فى ذلك قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا » .

ثم أمر رسول الله أسامة أن يعتق رقبة ، كفارة لما فعل .

هنا لانستطيع أن ندع هذا الحادث الصغير فى ذاته ، الجليل فى مؤداه وأثره ، بدون تعليق ، لأنه يدل على الروح السلمية التى كانت تتولى المسلمين فى مجاهدتهم للمشركين . وهو يدل دلالة قاطعة على أن الجهاد فى الاسلام لم يشرع تحت املاء عاطفة وحشية ، كالتى تتسلط على طلاب المغانم بواسطة الغارات ، ولا على محبى التبسط فى الملك دون مراعاة مبدأ انسانى يراد من ورائه إحداث إصلاح عام للبشر . بل شرع تحت سلطان روح علوية مصاحبة لشعور سام بالحقوق الطبيعية لكل فرد من بنى الانسان ، ولكل جماعة من جماعاته ، ولولا أن الانتقالات الأدبية والاجتماعية لاتتم إلا على هذا النحو من التدافع والتناحر ، وفقا للسنة الطبيعية التى تشاهد فى جميع أدوار التاريخ ، وفى كل عهود التطورات الانسانية ، لسبق الاسلام كل داع للسلام فى الأرض . ناهيك أنه احتاط لعهد استقرار السلام العام حين يتقرر بين الأمم ، بمبدأ لايجوز أن يغفله المتكلمون فى هذه الناحية من الشئون الاجتماعية ، ألا وهو قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، وبناء على هذا الأساس ، فان الدعوة العامة التى ستتلو هذه الحرب العالمية المستعرة ، سيكون الغرض منها ابطال الحرب ، عند ذاك يجد المسلمون أنفسهم فى محبوحة من الأمر ، بل يجدون ما يفخرون به أمام الأمم ، حين يفضون اليهم بان دينهم قد توقع حدوث هذه الدعوة قبل وقوعها بنحو أربعة عشر قرنا . وفى هذا أكبر داحض لادعاآت خصوم الاسلام بأنه دين تناحر وعدوان ، لادين اخوة وسلام .

نعود إلى سرد الحوادث التاريخية فنقول :

وبلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن طاغية من طواغى الجاهلية يدعى عيينة بن حصن ، تمالأ مع جماعة من بنى غطفان كانوا يقيمون قريبا من أرض خيبر ، للاغارة على المدينة ، فأرسل اليهم فصيلة عسكرية مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل تحت قيادة بشير بن سعد الانصارى ، فلما وصلوا إلى محلتهم استاقوا ماشيتهم ، ولما بلغ الغطفانيين الخبر لحقوا بعليا بلادهم إلا اثنين منهما سلما ، وعاد المسلمون بغنائمهم إلى المدينة ؟

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

الفلسفة الاسلامية فى المغرب

— ٩ —

ابن رشـــد

من آراء العلماء فى فلسفته : عنـد البير الأكبر — ١٢٠٦ — ١٢٨٠

كان هذا الفيلسوف يعرف ابن رشد أكثر من جيوم ، ويقترب من فهم مبادئه كثيرا على الرغم من أنه كان تلميذا وفيا لابن سينا . وبالتالى لم يكن يضع ابن رشد فى الصف الأول بسبب افتناعه برفعة ابن سينا عليه . وليس هذا فحسب ، بل إنه وقف جانبا هاما من مجهوده على محاربة ما لم يرقه من آرائه . فمن ذلك مثلا أنه هاجم نظـرية العقل الرشدية مهاجمة عنيفة، فـكتب فيها فى سنة ١٢٥٥ مؤلفا خاصا ، كله حجج منطقية ، بدأه بثلاثين قياسا تؤيد كلها فـكرة وحـدة العقل التى قال بها ابن رشد ، والتى قرر فيها أن لجميع أفراد بنى الانسان عقلا واحدا . ثم ذكر بعد ذلك ستة وثلاثين قياسا ضد هـذا الرأى ، فـكانت النتيجة أن تفوقت فـكرة خلود النفس الذاتية بستة أقيسة لم يسبق لخصومها أن نقضوها .

وفى سنة ١٢٦٩ أعاد الهجوم من جديد على الفلسفة الرشدية فى محاضراته فى جامعة باريس ، وكانت مهاجماته الأخيرة تدور كلها حول فكرة أن العقل المفارق الذى يشع على الأفراد البشرية من الخارج والذى هو وحده الأبدى ، فكرة بغيضة (١) .

عند القديس توماس الأكوينى — ١٢٢٧ — ١٢٧٤

يعد مسلك هذا الفيلسوف بإزاء ابن رشد من أغرب المسالك ، إذ يحدثنا رينان أنه كان طليعة تلاميذه اللاتينيين وأكبر خصومه فى نفس الوقت ، فقد استعار منه أسلوبه فى الـكتابة وأنهاجه فى الشرح والتعليق التى كانت مجهولة فى الغرب تمام الجهل ، وقد اعترف بأنه من أعاظم شراح أرسطو ، وأنه جدير بالاجلال فى بعض نواحى مذهبه ، ولـكنه قرر أيضا أنه هو مؤسس أحد مذاهب الزندقة الجديرة بالجحيم .

ومما هاجمه القديس توماس من آراء ابن رشد ، نظريات الهيولى ، ودرجات المبادئ الأولى ، ومهمة العقل الأول الذى هو عنده معلول وعلة فى نفس الوقت ، وجحود العناية الالهية ، واستحالة الخلق من العدم ، ووحدة العقل .

---

(١) انظر صفحة ٢٣١ وما بعدها من كتاب رينان .

مكتبتنا العربية

لم يقف توماس عند هذا الحد ، بل أعلن أن أرسطو كان معذورا بعض الشيء فى أخطائه ، أما ابن رشد فلا عذر له فى أخطائه من جهة ، وهو من جهة أخرى قد انحدر نحو الأضاليل أكثر من الفلاسفة السابقين ، فغالى فى تحميل نصوص أرسطو ما لا تطيق ، ليقتادها نحو الزندقة ويهوى بها فى الظلام الذى حاول أرسطو أن يتخلص منه حينما اهتدى الى المحرك الأول فتفوق به على الفلاسفة القدماء الذين لم يكونوا يرون فى الكون إلا الحركة والمتحركات ، والتغير والمتغيرات .

أما نظرية وحدة العقل فقد سلك توماس فى نقضها مسلكا لبقا ، إذ حاول أن يضع أيدى الباحثين على التصادم الذى بين ابن رشد وبين أسلافه من فلاسفة الإغريق والعرب فيها ، وأن يثبت أن جميع فلاسفة العرب اتفقوا على أن العقل شخصى لدى كل فرد . ولما تم له ما أراد ، أخذ يهاجم نظرية ابن رشد فى عنف ، وكذلك حمل على فكرة اتصال العقل السلبى بالعقل الإيجابى ، وفكرة إدراك المفارقات . وقد عنى بايضاح المماندة بين رأى أرسطو ورأى ابن رشد فى هذه النظرية ، وكأنه كان يريد أن يقول له : إنك قد قدست أرسطو فى أكثر من موضع من كتبك ، فما بالك فى هذه الفكرة تخالف رأيه الذى يعلن فى صراحة « أن الانسان لا يستطيع أن يدرك ما لا صورة له ... ؟ وما دام أن الجواهر المفارقة لا صور لها ، وما دمنا لا ندرك إلا ما له صور ، فنحن لا ندركها ؛ وما دمنا لا ندركها فحكمنا عليها بالوجود خاطئ » .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ولا يعترض على توماس فى هذا المقام بأنه يحكم بوجود الإله مع أنه لا صورة له ، فإن المانع من ورود هذا الاعتراض هو أن توماس يعتقد أن الإله مدرك بالنفس التى هى جوهر إلهى محض .

عند جيل الرومى :

كان هذا العالم أحد رجال الدين البارزين فى القرن الثالث عشر ، وكان ألد خصوم العرب فى البيئات اللاتينية . فمن خلال كتبه رأى الناس للمرة الأولى أن ابن رشد كان عدوا للديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلامية ، وأنه موسس الرأى القائل بأن الديانات كلها زائفة وإن كانت نافعة . ولهذا كله نبذ « جيل » آراء ابن رشد نبذ النواة ، وصرح بأنه قد أحيا جميع أضاليل الفلاسفة السابقين ، وهو أقل منهم عذرا ، لأنه يهاجم إيماننا بطريقة مباشرة ، وقد أخذ عليه أنه عاب جميع الديانات كما يرى القارئ فى كتابيه : العاشر والحادى عشر مما وراء الطبيعة طعنه على الشريعتين : المسيحية والاسلامية ، لأنهما قالتا بالخلق من العدم . ولقد نقد الديانات كذلك فى الكتاب الثالث من الطبيعة ووصف آراء رجال الدين بأنها صادرة عن الأهواء والأغراض ، لا عن التعقل والمنطق .

مكتبتنا العربية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مكتبتنا العربية

باب الأسئلة والفتاوى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى من حضرة توفيق احمد الصيرفى :

رجل يملك تجارة وعقارا ومنازل ، وعنده زوجة وأولاد سبعة ، منهم أربعة ذكور وثلاث إناث ، اثنان متزوجان وواحد بدون زواج ، وتقدر قيمة المنازل بمبلغ ٢٥٠٠ جنيه والتجارة بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه . وبعض الذكور تعلم تعليما ابتدائيا ، ووصل واحد منهم الى السنة الثانية فى الثانوى ، والأخير وصل الى آخر مراحل التعليم (الليسانس) .

والمطلوب الإجابة على الآتى :

١ — هل للوالد أن يحرم مما يملك ولده غير المستقيم ، فاعل المنكر ومرتكب الآثام ، أو يحرمه لعقوقه ؟

٢ — هل للوالد أن يحرم ولده ذا المركز (صاحب وظيفة حكومية) وذا الملك مما يملك ، مع ملاحظة أنه ماوصل إلى هذا إلا بفضل والده بما ميزه به على أولاده الآخرين فى التعليم الثانوى والتعليم العالى حتى حصل على شهادة الليسانس ، وما صرف عليه من مال وفير حتى أصبح يتقاضى مرتبا أكثر من إيراد المنازل التى يملكها هذا الوالد ؟

٣ — هل للوالد أن يعطى بعض أولاده الباقين ما يملك على حسب أحوالهم المالية والعقلية والأخلاقية ، بأن يميز الأفقر مثلا ببعض المال ، وأن يعطى الأعقل حصة كبيرة من ماله لأنه هو الذى سيقوم مقام والده فى حياته لضعف صحته ويخلفه بعد مماته ، وأن يعطى الذى لا يانس فيه العقل الصحيح ما لا يكفيه .

٤ — هل للوالد أن يجعل لبعض أولاده الذين لم يتعلموا إلا تعليما ابتدائيا وأحدهم زاد عن الباقين بمرحلة فى الثانوى معاشا لاحتياجه اليهم فى تجارته فكانوا مشتركين معه فى بناء هذا المعاش ، فهم يده اليمنى ، مع العلم بان هذا البناء أى التجارة سينهدم بعد موته ويأخذ منه الذين لم يساهموا فيه ؟

الرجا من فضيلتكم التفضل باجابتنا عن ذلك ، أدامكم الله ملجأ للعدل .

توفيق احمد الصيرفى

تاجر بشارع الكوبرى — بينها

الجواب : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال : « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا » ، فقرر بهذا الحديث المحال حرمة ،

مكتبتنا العربية

وجعل له اختصاصا بصاحبه من دون الناس ، وثبت بذلك دعائم الملكية التى دلت التجارب المتكررة الكثيرة التى امتحنت بها الأمم المختلفة نظم الاقتصاد والاجتماع على أنها أفضل النظم لعمران الكون ، وخير الوسائل لبناء المجموعات البشرية التى لا غنى للعالم عنها .

وروى الحسن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل أحد أحق بكسبه من والده وولده والناس أجمعين » . فثبت بهذا مزيد اختصاص الانسان بماله دون كل من عداه ، وأولوية المرء بما كسب من مال دون غيره من الناس ، فتقوّى بذلك حق الملكية ، واتضحت معالمه ورسومه.

وروى الدارقطنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفسه » . فتقرر بهذا الحديث المبدأ التشريعى السائد فى الأمم ، والذى يكاد يكون مقررا بالفطرة وهو حرية المالك فيما ملك ، وحرية التصرف لذوى الشأن فيما يملكون .

وورد فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية دلائل بينة نظمت تصرفات الانسان المختلفة فى ماله ، وضمنت بهذا النظام اجتناب التصرفات الضارة التى لاعدل فيها ولا إنصاف : يقول الله تعالى فى حق المال : « وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين » ، « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ، « وأحل الله البيع وحرم الربا » ، « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا » ، « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . فحرية التصرف التى ضمنها الشرع مبدأ أساسى للحياة الاجتماعية ، والقيود التى تكتنف هذه الحرية مبدأ آخر يعاونه فى تنظيم سبل الحياة .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تصرفات الانسان فى ماله بين أولاده ، بالتفضيل أو الحرمان أحاديث ، ورويت آثار نظر الفقهاء فى دلالتها ، ولم يهملوا النظر الى المبدأ الذى قررته الشريعة فى حرية التصرف ، فكان لهم فى حكم هذه التصرفات آراء مختلفة .

١ — فمن الأحاديث ما روى أن النعمان بن بشير قال : « تصدقَ علىّ أبى ببعض ماله ، فقالت أمى عمرة بنت رواحة لا أرضى حتى تشهد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أبى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليُشهده على صدقته ، فقال : أكلَّ ولدك أعطيتَ مثله ؟ قال : لا ، قال فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم . قال فرجع أبى ورد تلك الصدقة » . وفى لفظ : فارددْه ، وفى لفظ : فارجعه ، وفى لفظ : لا تشهدنى على جور ، وفى لفظ : فأشهد على هذا غيرى . وفى لفظ : سوّ بينهم (حديث متفق عليه) . ورواه أحمد وقال فيه : لا تشهدنى على جور ، إن لبنيك من الحق أن تعدل بينهم .

٢ — وروى جابر قال : « قالت امرأة بشير : انحلْ ابنى غلاما وأشهد لى رسول الله صلى

مكتبتنا العربية

الله عليه وسلم ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن ابنة فلان سألتنى أن أنحل ابنها غلامى ، فقال : ألَه إخوة ؟ قال نعم ، قال : فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ قال : لا ، قال : فليس يصلح هذا ، وإنى لا أشهد إلا على حق » .

٣ — عن عائشة أن أبا بكر الصديق كان نحلها (جاد) عشرين وسقا من ماله بالغاب ، فلما حضرته الوفاة قال : يا بنية إنى كنت نحلتك (جاد) عشرين وسقا ولو كنت جددته واحتزته كان لك ، وإنما هو اليوم مال وارث فاقتسموه على كتاب الله .

٤ — وورد أن عمر بن الخطاب نفل ابنه عاصما وفضله بالعطية على بنيه .

٥ — وكذلك ورد أن صحابة آخرين فضلوا بعض أولادهم فى النحلة والهدايا والعطاء .

ولما عرض الفقهاء بالنظر والتخريج لهذه الأحاديث والآثار ، اختلفت أنظارهم فتباينت آراؤهم ، فمنهم طائفة ترى وجوب التسوية بين الأولاد فى كل حال ، ومنهم من يرى وجوب التسوية بينهم إلا لمبرر شرعى . ومنهم من يرى استحباب التسوية بينهم . وقد ضربوا مثلا للمبررات الشرعية التى تستأهل التفضيل بالزمانة والعمى والعجز عن التكسب والاشتغال بطلب العلم الشرعى ونحوها .

وجعل جمهور الفقهاء الفسق من المبررات التى تجيز حرمان الولد الفاسق أو تفضيل غيره عليه . وخالف ابن حزم فى الفسق فلم يره مجيزا للحرمان أو التفضيل .

***

واللجنة بعد ما اطلعت على وجهات النظر الفقهية المختلفة ، ومحصت الأدلة ، وقدرت الملابسات الكثيرة للأحاديث والآثار التى وردت ، تجيب بما يأتى :

(أولا) يجب على الوالدين التسوية بين الأولاد فى العطية والهدايا والإنفاق ما استطاعا الى ذلك سبيلا ، ولا يجوز الخروج عن هذا الأصل إلا لمبرر كما يأتى :

فقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال : « سووا بين أولادكم ولو بشق تمرة » . وأمر عليه الصلاة والسلام ألا يأتى الانسان مايوقع أبناءه فى أن يعقوه ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « لعن الله من استعق ولده » .

(ثانيا) إذا أنفق أحد الوالدين على أحد الأولاد نفقة ذات قيمة بأن زوجه ودفع له مهر الزوجة ، أو أنفق على تعليمه تعليما مدنيا أوصله الى وظيفة ذات غناء ، أو جهز إحدى بناته ، كان عليه أن يعوض سائر ولده الآخرين بمقدار ما أنفقه على ولده الأول .

(ثالثا) يجوز تفضيل بعض الأولاد على بعض لمبرر شرعى . ومن المبررات الشرعية العاهات المانعة من الكسب ، كالزمانة ، والعمى المانع ، والشلل ، وكذلك العجز عن التكسب ، والاشتغال بالعلم الدينى . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

مكتبتنا العربية

كلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم

—

رأينا فى هـذا الشهر أن نذكر للقارئ الكريم بعض ما ذكره العلماء مما يعد برهانا على صدقه وعلو منزلته ، فنقول :

قال الإمام أبو محمد على بن احمد بن حزم : « وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يختلف أحد فى مشرق الأرض ومغربها أنه عليه السلام أتى إلى قوم جهال لا يقرون بملك ، ولا يطيعون لأحد ، ولا ينقادون لرئيس ، نشأ على هذا آباؤهم ، وأجدادهم وأسلافهم منذ مئات من الأعوام ، قد سرى الفخر والعز والنخوة والكبر والظلم والأنفة فى طباعهم ، وهم أعداد عظيمة قد ملأوا جزيرة العرب ، وقد صارت طباعهم طباع السباع ، وهم ألوف الألوف ، قبائل وعشائر ، يتعصب بعضهم لبعض . فدعاهم بلا مال ولا أتباع ، بل خذله قومه وأبوا أن ينحطوا من ذلك العز الى غرم الزكاة ، ومن الحرية والظلم الى جرى الأحكام عليهم ، ومن طول الأيدى بقتل من أحبوا إلى القصاص من النفس ، وقطع الأعضاء ، ومن اللطمة من أجل من فيهم لأقل رجل غريب دخل فيهم ، وإلى إسقاط الأنفة والفخر إلى ضرب الظهور بالسياط والنعال إن شربوا خمراً أو قذفوا إنسانا ، وإلى الضرب بالسوط والرجم بالحجارة إلى أن يموتوا إن زنوا . فانقاد أكثرهم لكل ذلك طوعا بلا طمع ولا غلبة ولا خوف ، مامنهم أحد أخذ بغلبة إلا مكة ، وخيبر فقط ، وما غزا غزوة يقاتل فيها إلا تسع غزوات بعضها عليه وبعضها له . فصح ضرورة أنهم آمنوا به طوعا وكرها ، وتبدلت طبائعهم بقدرة الله من الظلم إلى العدل ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفسق والقسوة إلى العدل العظيم الذى لم يبلغه أكابر الفلاسفة ، وأسقطوا كلهم أولهم عن آخرهم طلب الثأر ، وصحب الرجل منهم (قاتل ابنه وأبيه وأعدى الناس له) صحبة الإخوة المتحابين ، دون خوف يجمعهم ، ولا رياسة ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم ، ولا مال يتعجلونه . وقد علم الناس كيف كانت سيرة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وكيف كانت طاعة العرب لهما بلا رزق ولا عطاء . فهل هذا إلا بغلبة من الله تعالى على نفوسهم ، وقسره عز وجل لطباعهم ، كما قال تعالى : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » . ثم بقى عليه السلام كذلك بين أظهرهم بلا حارس ، ولا ديوان جند ولا بيت مال محروسا معصوما . وهكذا نقلت آياته ومعجزاته . فأى شىء يصح من أعلام الأنبياء . فأعظم منه مانقل عنه عليه السلام بصحة الطريق اليه وارتفاع دواعى الكذب ، والعصبية جملة عن أتباعه فيه ، فجمهورهم غرباء من غير قومه ، لم يمنهم بدنيا ، ولا وعدهم بملك . وهذا لا ينكره أحد من الناس » .

مكتبتنا العربية

وأيضا فان سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقتضى تصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا . فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى ، وذلك أنه عليه السلام نشأ كما قلنا فى بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يخرج عن تلك البلاد قط إلا خرجتين : إحداهما الى الشام ، وهو صبي مع عمه أبى طالب الى أول أرض الشام ورجع ، والأخرى أيضا الى أول الشام ، ولم يطل بها البقاء ، ولا فارق قومه قط .

ثم أوطأه الله تعالى رقاب العرب كلها . فلم تتغير نفسه ، ولا حالت سيرته ، الى أن مات ودرعه مرهونة فى شعير لقوت أهله (أصواع ليست بالكثير) .

ولم يبت قط فى ملكه دينار ولا درهم . وكان يأكل على الأرض ما وجد ، ويؤثر على نفسه .

وقُتل رجل من أفاضل أصحابه بين أظهر أعدائه من اليهود ، فلم يتسبب الى أذى أعدائه بذلك ولا توصل بذلك الى دمائهم ، بل فداه من عند نفسه بمائة ناقة ، وهو فى تلك الحال محتاج الى بعير واحد يتقوى به . وهذا أمر لا تسمح به نفس ملك من ملوك الأرض وأهل الدنيا من أصحاب بيوت الأموال بوجه من الوجوه . فصح يقينا لا شك فيه أنه إنما كان متبعا ما أمره به ربه عز وجل . سواء أكان ذلك مضرا به غاية الإضرار أم كان غير مضر به . وهذا عجيب لمن تدبره .

ثم حضرته المنية ، وله عم أخو أبيه هو أحب الناس اليه ، وابن عم هو من أخص الناس به ، وهو أيضا زوج ابنته التى لا ولد له غيرها ، وله منها ابنان ذكران ، وكلا الرجلين المذكورين عمه وابن عمه ، عنده من الفضل والدين والسياسة فى الدنيا ، والبأس والحلم وخلال الخير ما يجعل كل واحد منهما حقيقا بسياسة العالم كله ، فلم يحابهما ، وهما من أشد الناس دفاعا عنه ومحبة فيه ، وهو من أحب الناس فيهما ، إذ كان غيرهما متقدما لهما فى الفضل وإن كان بعيد النسب منه ، بل فوض الأمر اليه قاصدا الى الحق واتباع ما أمر به .

ولم يورث ورثته ابنته ونساءه وعمه ، فلسا واحدا ، وهم كلهم أحب الناس اليه ، وأطوعهم له .

وهذه أمور لمن تأملها كافية مغنية فى أنه إنما تصرف بأمر الله تعالى له لا بسياسة ولا بهوى ، ولا مقتضى طبيعة .

فوضح بما ذكرنا ولله الحمد أن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حق ، وأن شريعته التى أتى بها هى التى وضحت براهينها ، واضطرت دلائلها الى تصديقها ، وانقطع على أنها الحق الذى لا حق سواه ، وأنها دين الله تعالى الذى لا دين له فى العالم غيره . والحمد لله رب العالمين ؟

يوسف الرهوى
عضو جماعة كبار العلماء

مكتبتنا العربية

حياة رجالات الإسلام

عثمان بن عفان

— ١٣ —

نوافذ الأحداث

عرف القارئ الكريم من حديثنا السابق حقيقة قصة أبي ذر، وحديث نفيه الى الربذة، وقد كشفنا القناع عن تلبيسات المنحرفين وتجنيهم على موقف عثمان رضي الله عنه من تلك القصة وذلك الحديث؛ وفي الحق أن هذه القصة كيفما صورت لا تخرج عن كونها مظهرا من مظاهر تقرير سلطان الرياسة العليا للدولة، وتوطيد دعائم الحكم، ولونا من ألوان سياسة الأمة، وحياطة النظام العام للدولة بسياج من الحزم والقوة الرهيبة، وحماية التشريع العام من شذوذ الأفكار وتطرف المذاهب وخطر الآراء ونتائج الثورات.

ولم تكن قصة أبي ذر لتلبس هذا الثوب الفضفاض الذي حاكه لها المنحرفون من نسج أغراضهم لولا عصبية الهوى، ولو أنصف التاريخ لكانت هذه القصة من مفاخر الخلافة العثمانية، وآية على السياسة الحازمة الحكيمة التي كانت تساس بها الأمة في تلك الخلافة الراشدة، وإلا فكيف يكون حال الأمة الاسلامية، وعلى أي صورة يكون نظام الحكم فيها، لو ذاع فيها ما نسب الى أبي ذر رحمه الله من مذهب في الأموال؟

ومن غرائب المفارقات أن التاريخ عد هذا اللون في سياسة عمر بن الخطاب مفخرة من مفاخره؛ وقد أريناك قصته مع سعد بن أبي وقاص وتناوله بالدرة لأنه لم يهب سلطان الخلافة، فأراه عمر بدرته أن السلطان لا يهابه؛ وروى أن عمر رضي الله عنه رأى أبي بن كعب يمشي وخلفه قوم، فعلاه بالدرة وقال: إن هذا مذلة للتابع وفتنة للمتبوع! ولم يعب ذلك أحد بل رآه التاريخ في حزم عمر ورهبة سياسته؛ وروى أنه صنع أكثر من ذلك مع أبي سفيان وجماعة من أجلاء الصحابة ورءوس العرب فلم يغير قلوبهم ولا رآه أحد منقصة لهم؛ أما عثمان رضي الله عنه إذا وقع منه بعض ما وقع من عمر لأسباب أهم وأعظم فقد خرج في نظر المنحرفين عن جادة العدل، وحاد عن طريق الرشاد؛ وهذا فيصل ما بين مجتمع عمر ورعيته، ومجتمع عثمان ورعيته، وأين تقع هذه الهنات الفردية غير المقصودة التي رأى عمر رضي الله عنه تأديب سعد وأبي وأمثالهما لأجلها مما عزى لأبي ذر في الأموال؟ وأين يقع موقف عمر مع أصحابه

مكتبتنا العربية

من موقف عثمان مع صاحبه ؟ ولكن التاريخ يسطر ما يملى عليه المجتمع ، ومجتمع عثمان ثائر ساخط ، ينظر الى الأمور نظرة حولاء تجعل القليل كثيرا والمستقيم معوجا ؛ ومن هنا أحصوا على عثمان هذه التوافه ، وجعلوها أحداثا جساما قام عليها أخطر انقلاب عرفه التاريخ .

وفى هذه الهنات التى أحصوها على عثمان رضى الله عنه قصة تتلاقى مع قصة أبى ذر فى تقدير بطل روايتها وإن اختلفت عنها فى موضوعها ، تلك هى قصة عقدوا عروتها بناصية رجل من السابقين الأولين فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك هو عمار بن ياسر رضى الله عنه : روى أبو بكر بن أبى شيبة عن الأعمش قال : « كتب أصحاب عثمان عيبه وما ينقم الناس عليه فى صحيفة فقالوا : من يذهب بها اليه ؟ قال عمار : أنا أذهب بها اليه ، فلما قرأها عثمان قال : أرغم الله أنفك ! قال عمار : وبأنف أبى بكر وعمر ؟ فقام عثمان الى عمار فوطئه حتى غشى عليه ، ثم ندم عثمان ، وبعث اليه طلحة والزبير يقولان له : اختر إحدى ثلاث : إما أن تعفو ، وإما أن تأخذ الأرش ، وإما أن تقتص ؛ فقال عمار : والله لا قبلت واحدة منها حتى ألقى الله ! » . قال ابن أبى شيبة : فذكرت هذا الحديث لحسن بن صالح فقال : ما كان على عثمان أكثر مما صنع .

وفى رواية أخرى لبعض المؤرخين : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع منهم خمسون رجلا من المهاجرين والأنصار ، فكتبوا أحداث عثمان وما نقموا عليه فى كتاب وقالوا لعمار : أوصل هذا الكتاب الى عثمان ليقرأه فلعله أن يرجع عن هذا الذى ننكره ، وخوفوه فيه بأنه إن لم يرجع خلعوه واستبدلوا غيره ؛ وزعم رواة القصة أن عثمان لما قرأ الكتاب طرحه ، فقال عمار : لا ترم بالكتاب وانظر فيه ، فانه كتاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنى والله ناصح لك ، وخائف عليك ! فقال له عثمان : كذبت يابن سمية ! وأمر غلمانه فضربوه حتى وقع لجنبه وأغمى عليه ؛ وزعم رواة القصة أن عثمان لم يكتف بهذا الذى وقع لعمار من غلمانه بل قام بنفسه فوطئ بطنه ومذاكيره حتى أصابه الفتق وأغمى عليه أربع صلوات قضاها بعد الافاقة ، واتخذ لنفسه تبانا تحت ثيابه لأجل الفتق ، فغضب لذلك بنو مخزوم ، وقالوا : والله لئن مات عمار من هذا لنقتلن من بنى أمية شيخا عظيما ! يعنون عثمان رضى الله عنه .

ذكرنا فى أحاديثنا السابقة أن تدوين التاريخ بأسلوب الأقاصيص دون تمحيص وتحليل يرد الأشياء الى نظائرها والأمور الى مصادرها ، كان بلية عظمى على التاريخ الاسلامى وسيرة رجالاته ، ولا سيما فى مراحل الاضطراب والانقلابات ، وكان لسيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه من ذلك الحظ الأوفى ، ورواية قصة عمار بن ياسر على هذا المنهج الملتوى المغرض بعض ما نال تلك السيرة النيرة من تحريف المنحرفين ؛ وأخلاق عثمان فى حيائه ...

مكتبتنا العربية

وسابقته وجليل مكانه فى الاسلام أجل من أن تنزل به الى هذا التصرف مع رجل من أجلاء الصحابة يعرف له عثمان سابقته وفضله مهما كان بينهما من اختلاف فى الرأى ، فعثمان الذى أبى على الناس أن يقاتلوا دونه ، ورضى لنفسه القتل صابرا محتسبا اتقاء الفتنة العامة ، يرضى أن يصنع بعمار - وهو أعرف الناس بمكانته فى الاسلام - ما تحكيه هذه الرواية السقيمة ؟ وعثمان الذى يعرف شرف انتساب عمار الى أمه سمية أول شهيدة فى الاسلام ترضى أخلاقه وحياؤه أن يعير عمارا بأنه ابن سمية ؟ وأى شرف أشرف لعمار من أنه ابن سمية ، وهى من عرف الناس إيمانها وشرفها ومكانها فى السابقين ؟ وهل وجد التاريخ الصحيح فى سيرة عثمان وأخلاقه ما يدنيه من هذا الأسلوب فى الزجر والتأديب ؟ ليت الباحثين فى التاريخ يعنون بنقد هذه الروايات وتطبيقها على صور شخصياتها ! ! إذن لكان لهم أصدق ميزان فى النقد وأبرعه فى كشف دخائل الوضاعين المفترين .

الرواية الصحيحة فى قصة عمار رضى الله عنه ، أن عثمان قال : جاء عمار وسعد الى المسجد ، وأرسلا إلىّ أن ائتنا فانا نريد أن نذكرك أشياء فعلتها ، فأرسلت إليهما : إنى عنكما اليوم مشغول ، فانصرفا وموعدكما يوم كذا ، فانصرف سعد ، وأبى عمار أن ينصرف ، فأعدت إليه رسولى فأبى ، ثم أعدته إليه فأبى ، فتناوله رسولى بغير أمرى ، والله ما أمرته ولا رضيت بضربه ! وهذه يدى لعمار فليقتص منى إن شاء !

وفى هذه الرواية الصحيحة أمور تكشف عن وجه الحق فى موقف عثمان رضى الله عنه ، وأول هذه الأمور أن عمارا وسعدا - بما لهما من المكانة ، وبما عليهما من واجب النصيحة للامام الأعظم وللأمة ، وقد وصل إليهما ما تهامس به الناس فى مجالسهم - أرسلا الى الخليفة ليذكراه فى أشياء فعلها ، وتحدث بها الناس فى غير رضا عنها واطمئنان بها ؛ وواضح أن هذه المذاكرة إنما أرادا بها « أولا » معرفة وجه المصلحة فى تلك الأمور التى تحدث عنها الناس ، وثانيا إبلاغ الخليفة صدى ما تردد على الألسنة اتقاء الفتنة وخشية الاضطراب .

وثالث هذه الأمور أن الخليفة اعتذر إليهما من عدم استطاعته مقابلتهما فى يومهما هذا وحدد لها موعدا فى يوم آخر ، وهذا أقل ما يتصور من الحق للأفراد ، بله خليفة المسلمين ، فانصرف سعد ، وأبى عمار ، فأعاد أمير المؤمنين إليه الرسول يؤكد الاعتذار مرة ومرة ، وهو يأبى ؛ وهنا قد يتدخل الخيال فيكمل ما نقصته الرواية أو أنقصته قصدا ، ويصور لنا موقف عمار فى إصراره على ضرورة المقابلة رغم تكرر الاعتذار ، وتحديد موعد آخر للمقابلة . ويستطيع القارئ فى يسر أن يتصور ما فى هذا الإصرار الذى انفرد به عمار عن صاحبه من الاحراج ، وليس يخلو موقف كهذا من مجادلة قد تعنف وتشتد ، ويلقى فيها الرسول من سيدنا عمار تعنيفا قد يتعداه الى دائرة الخلافة والحكم والعمال والولايات مما لعله جاء للمذاكرة فيه

مكتبتنا العربية

مع الخليفة ، وحينئذ يمكن فى سهولة أن ندرك أن الرسول تناول عمارا بغير إذن الخليفة ولا رضاه ؛ ونحن فى جهالة من أمر هذا الرسول من يكون ؟ وماذا يكون ؟ حتى نحكم على فعله هذا حكما متصلا بالخليفة يحمل ثقله ويتحمل تبعاته ؛ أما أن هذا الفعل منكر فى ذاته فهذا مالا ينكره أحد .

ورابع هذه الأمور أن عثمان رضي الله عنه حلف حين عوتب أنه ما أمر رسوله بتناول عمار ، وأنه ما رضى إذ بلغه ، وليس فى شريعة الانصاف طريق لتبرئة عثمان من تبعة فعل رسوله غير هذا .

وخامس هذه الأمور أن أمير المؤمنين لم يقف من عمار عند هذا الحد ، بل تقدم إليه بأبلغ ما يقع به الرضا فى أشد الخصومات ، فقال : وهذه يدى لعمار فليقتص منى إن شاء . ومن هذه الوجوه ندرك مدى ما تصنع الروايات السقيمة فى تشويه التاريخ ، ومنها ندرك حقيقة موقف أمير المؤمنين عثمان ، رضى الله عنه ؟

صادق ابراهيم عرجون

التلطف فى السؤال

قال المدائنى : سأل رجل خالدا القسرى حاجة فاعتل عليه .

فقال له الرجل : لقد سألت الأمير من غير حاجة .

فقال الأمير : وما دعاك الى ذلك ؟

قال الرجل : رأيتك تحب من لك عنده حسن بلاء ، فأردت أن أتعلق منك بحبل مودة .

فوصله الأمير وحباه ، وأدنى مكانه .

وروى ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد أن جارا لأبى دلف ، وكان من كبار قواد الرشيد ومن المشهورين بالجود ، لزمه دين فادح حتى احتاج الى بيع داره ، فساوموه بها ، فسألهم الفى دينار . فقالوا له : إن دارك لا تساوى إلا خمسمائة . فقال نعم ، وجوارى من أبى دلف بألف وخمسمائة .

فبلغ أبا دلف ما قاله ، فأمر بقضاء دينه ، وقال له : لا تبع دارك ، ولا تنتقل من جوارنا .

وروى ابن عبد ربه أيضا : أن امرأة وقفت على قيس بن سعد بن عبادة ، فقالت له : أشكو اليك قلة الجرذان (تريد الفيران) .

فقال قيس : ما أحسن هذه الكناية ، املأوا لها بيتها خبزا ولحما وسمنا .

مكتبتنا العربية

مع الخليفة ، وحينئذ يمكن فى سهولة أن ندرك أن الرسول تناول عمارا بغير إذن الخليفة ولا رضاه ، ونحن فى جهالة من أمر هذا الرسول ، من يكون ؟ وماذا يكون ؟ حتى نحكم على فعله هذا حكما متصلا بالخليفة يحمل ثقله ويتحمل تبعاته ؛ أما أن هذا الفعل منكر فى ذاته فهذا مالا ينكره أحد .

ورابع هذه الأمور أن عثمان رضى الله عنه حلف حين عوتب أنه ما أمر رسوله بتناول عمار ، وأنه ما رضى إذ بلغه ، وليس فى شريعة الانصاف طريق لتبرئة عثمان من تبعة فعل رسوله غير هذا .

وخامس هذه الأمور أن أمير المؤمنين لم يقف من عمار عند هذا الحد ، بل تقدم إليه بأبلغ ما يقع به الرضا فى أشد الخصومات ، فقال : وهذه يدى لعمار فليقتص منى إن شاء . ومن هذه الوجوه ندرك مدى ما تصنع الروايات السقيمة فى تشويه التاريخ ، ومنها ندرك حقيقة موقف أمير المؤمنين عثمان ، رضى الله عنه ؟

صادق ابراهيم عرجون

التلطف فى السؤال

قال المدائنى : سأل رجل خالدا القسرى حاجة فاعتل عليه .

فقال له الرجل : لقد سألت الأمير من غير حاجة .

فقال الأمير : وما دعاك الى ذلك ؟

قال الرجل : رأيتك تحب من لك عنده حسن بلاء ، فأردت أن أتعلق منك بحبل مودة .

فوصله الأمير وحباه ، وأدنى مكانه .

وروى ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد أن جارا لأبى دلف ، وكان من كبار قواد الرشيد ومن المشهورين بالجود ، لزمه دين فادح حتى احتاج الى بيع داره ، فساوموه بها ، فسألهم الفى دينار . فقالوا له : إن دارك لا تساوى إلا خمسمائة . فقال نعم ، وجوارى من أبى دلف بألف وخمسمائة .

فبلغ أبا دلف ما قاله ، فأمر بقضاء دينه ، وقال له : لا تبع دارك ، ولا تنتقل من جوارنا .

وروى ابن عبد ربه أيضا : أن امرأة وقفت على قيس بن سعد بن عبادة ، فقالت له : أشكو اليك قلة الجرذان (تريد الفيران) .

فقال قيس : ما أحسن هذه الكناية ، املأوا لها بيتها خبزا ولحما وسمنا .

مكتبتنا العربية

الفلسفة في الشرق(*)

— ٣ —

الباب الأول

آسيا الغربية

— ١ —

الأناضول وسوريا

نشأت الحضارات التي انتشرت في آسيا القديمة منذ فجر العصور التاريخية على أساس مشترك جمع تحت صبغته المتناسقة الى حد ما ، في الألف الثالث قبل الميلاد ، أوساطا ذاهبة في القدم مثل سومير (١) وإنجيه ، ولكن الغزوات التي يزخر بها التاريخ القديم قطعت أوصال هذه الحضارات . مثال ذلك أن القوطيين نزلوا من جبال زاجروس (٢) فأقاموا قرنا كاملا (حتى عام ٢٥٠٠ق.م) فيما بين النهرين ؛ ثم احتل الميتانيون بلاد أشور، وهم الموجة الأولى للتفجر الهندى الأوربي ؛ وبعد هذا توسع الأشوريون لما جاءت دولتهم حتى الكابادوس (٣). وعند الجنوب في فلسطين وجد حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م أقسوام من سكان الكهوف كانوا يقيمون هيا كل حجرية ، ورغم أنهم كانوا يحرقون موتاهم قد كانوا يعتقدون الحياة الأخرى إذ كانوا يقدمون لهم الأطعمة . وقد وجد هؤلاء السكان الأصيلون في تلك البلاد هنالك عند ما غزا المصريون سوريا للمرات الأولى .

وأقدم سكان آسيا القديمة من الساميين هم جماعات العموريين الذين يرجعون في الأصل الى سوريا العليا . فقد توغلوا فيما بين النهرين في القرن التاسع والعشرين والثامن والعشرين ق.م، وانسابوا أيضا غربا في الكابادوس وجنوبا على الشاطئ الذى صار فيما بعد فينيقيا . أما حضارة الكنعانيين أو الفينيقيين فهى مرحلة تالية لاقامة تلك الجماعات في البلاد التي ذكرناها .

وأهم حادث بارز في الألف التالى هو تفوق نفوذ الحيثيين ؛ إذ كونوا أمبراطورية امتدت

(*) مترجم من كتاب La philosophie en orient للفيلسوف ماسون أورسيل (انظر العدد الاول) .

(١) أحد قسمي بلاد كلدنيا فيما بين النهرين . (٢) جبال تحد إيران من الغرب .

(٣) إقليم من أقاليم آسيا الصغرى .

مكتبتنا العربية

حتى رأس شبه الجزيرة الأناضولية ابتداء من البحر الأسود إلى شواطئ كيليكيا (١). وفى عام ١٩٢٥ ق . م أغار الحيثيون على بابل فخربوها ، ثم قاموا بغزوات أخرى حتى وصلوا الى وسط سوريا ، وظلوا كذلك لا يجدون من يستطيع أن يقف لهم الى أن كانت غزوة الآشيين (٢) عام ١٢٩٥ ق . م .

والى القارئ بعض النتائج المباشرة أو غير المباشرة لاجتياز الهنود الأوروبيين للبلقان : فقد أسس بعضهم تراقيا ، واتجهوا الى آسيا حيث كونوا شعبا أفروجيا (٣) غرب الأمبراطورية الحيثية ، وغزا آخرون شبه الجزيرة الهيلينية وجزر إيجيه وأنشأوا مراكز إقامة فى بوليديا وليديا وكاريا وليسيا بآسيا الصغرى . أما الآشيون فبعد أن أبادوا الحيثيين أغاروا على تروادة عام ١٢٨٠ ق . م ، واخترقوا الهيلسبونت ، وهو ما يسمى الآن ببوغاز الدردنيل ، وأخيرا هاجموا مصر عام ١٢٢٩ ق . م . وكان من هذا أن فر من غزوة أهالى الشمال جميع الكيرتيين ذوى الثقافة العريقة فى القدم ، والدوديسيين ، والقوبرصيين صناع النحاس ، متجهين نحو جنوب آسيا الصغرى أو سوريا ، وبخاصة على أثر الهجوم المفاجئ الذى قام به الدوديون حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . وقد اتخذت فلسطين اسمها وقتئذ من شعب كريتى صغير يسمى فيليستان سنة ١١٩٣ ق . م ، والتقوا هناك بالعبريين الذين كانوا قد تعودوا حديثا حياة المدن بعد أن ظلوا رحلا فى صحراء سوريا العربية ، كما وجدوا قبائل آرامية (٤) كان الفراعنة قد استعبدوهم الى أن تحرروا على ما يظهر على يد سيدنا موسى عليه السلام .

وفى خلال الألف الثانى هذا ، حيث وقف توسع بلاد ما بين النهرين ، نرى نفوذ مصر ينمو ويتسع اتساعا مستمرا ، وبخاصة ابتداء من عام ١٦٠٠ ق . م .

أما الحوادث الهامة التى وقعت فى العصور التالية فهى معروفة أكثر مما سبقها . فآسيا الصغرى أخذت تتشبع بالروح الهيلينية من الغرب الى الشرق ، ولا سيما بعد سقوط أشور (٦١٢ ق . م) ، بل وحتى فى أثناء السيطرة الفارسية ، وكان من جراء الفتح المقدونى أن تم الاصطباغ بالهيلينية دون أن تتأثر تلك البلاد بعدئذ بالغزو الرومانى وسيطرة الرومان . فاذا جئنا الى سوريا نجد أنها خضعت أولا للاشوريين ثم للاشميديين (٥) ، فكان مصيرها مصير الأناضول ، بخلاف الأمر فى جيديه (اليهودية) ، فقد تجمع فيها شعب بنى إسرائيل حيث قام برسالة البطولة العجيبة كما حدث فى جميع البلاد التى عاش فيها هذا الشعب .

---

(١) قسم من أقسام آسيا الصغرى فى ناحية الشرق من السواحل الجنوبية .

(٢) الآشيون أو الاخائيون جماعة من اليونان القدماء الذين كان لهم إمارة فى الامبراطورية اليونانية .

(٣) من الشعوب التى هاجرت من أوربا الى آسيا وأقاموا لهم دولة فى آسيا الصغرى .

(٤) الآراميون جماعة ترجع الى آرام الابن الخامس لسام ، وكانوا يسكنون كما تقول التوراة سوريا وبلاد ما بين النهرين . (٥) أسرة فارسية قامت من عام ٦٨٨ - ٣٣٠ ق . م .

إن الحوادث التى أشرنا إليها مقتصرين على أقدم عصور التاريخ تدل دلالة واضحة على أن من الخطأ عزل أصول ثقافتنا الغربية عن الشئون الآسيوية . لقد نشأت تلك الثقافة فى إيونيا (باسيا الصغرى) وبلاد الاغريق على السواء ، وكذلك فى البقاع التى تنتهى عندها طرق الشرق ؛ وإذاً فقد اشترك فيها من غير تفرقة الأيجيون ، والساميون من عرب وكلدان ، والهنود الأوربيون الذين يعتبرون أسبانيين (١) بكل معنى الكلمة .

وسنرى عند ما ندرس موضوع بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) إلى أى حد اشتركت بلاد الكلدان فى تكوين التفكير الأوربى . أما هنا فاننا سنكتفى ببيان الأثر الذى أحدثه فى العقلية الغربية القديمة تلاقى العوامل الشمالية والأسبانية فى البلاد المختلفة ، ومن هذا ما كان منه فى بلاد أفروجيا التى التقت فيها سامية العبريين الخاصة بهم بالنشاط الفينيقى .

٢ ـ أفروجيا

كما أن مقدونيا وتراقيا اعتبرتا من بلاد الدرجة الثانية بالنسبة الى يونان أوربا ، كذلك اعتبرت أفروجيا بالنسبة الى يونان آسيا .

هنا وهناك كانت تلك البلاد تعيش على هامش العلاقات القائمة بين الشعوب اليونانية ، وهناك وهناك أيضا كانت العقائد والعادات القديمة سائدة فى الجبال والهضاب والغابات . وبحكم وجود حوض البحر الأسود منعزلا عن كل اختلاط مع الشعوب السامية ، فقد وجدت فيه بيئة صالحة لتركيب طريف بين الأسبانيين والهنود الأوربيين ، تركيب أضيف اليه ما يكون من الصلة المستمرة بالأقوام الرحل الذين يتنقلون بين الأدغال السيتية (٢) .

وقد كان الافروجيون من أصل تراقى وهاجروا إلى الأناضول فأخذوا معهم الجزء الأكبر من التراث الحيثى الذى انتقل معه شىء من ثقافة بلاد ما بين النهرين ، وقد تلقوا عن نفس الطريق بعض التأثير الايرانى منذ أن انتقل السلطان من الأشوريين الى الفرس . وقد ظهر أثر هذه الأمة الأفروجية على أجيالنا القديمة عن طريق دينهم ، إذ أن « طقوسهم » وشعائرهم وعقائدهم قد استندت الى الطبقات الثقافية السابق الاشارة اليها ؟

الحديث موصول

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

(١) ترجمة لكلمة مستحدثة هى « Asianique » ويراد بها ما اتصل بآسيا والمحيط التى يحوطها ، أى الآسيويين المحيطين . (٢) السيتيون شعب قديم يعتبر فى اغلبه من الرحل ، وكان يقيم فى الجنوب الشرقى لاوربا والشمال الغربى لآسيا .

مكتبتنا العربية

ذكرى الميلاد المحمدى

السلام عليك يارسول الله سيدنا محمد بن عبد الله .

هذه وقفة الكتّاب كل عام عند ذكرى ميلادك الكريم ، يتذاكرون خلالك فى التاريخ ، وفضلك فى الوجود ، وأثرك العظيم فى الأمة العربية وفى الإنسانية عامة ، ويقبسون من نور هديك ، وجليل شرعك ، ما يهتدى به الضالون ، ويتذكر الغافلون .

قد يكون فيما يشغل العالم الآن فرصة للتذكير بمبادىء الشريعة التى جاهد صاحب الذكرى عليه الصلاة والسلام فى التبشير بها وحمايتها وإقرارها ، وتبصير العالم بحسن آثارها . فقد شغل زعماء العالم أنفسهم ـ والحرب يتسعر لهيبها ويتأجج أوارها ـ بوضع النظم والقواعد التى سيستقر العالم عليها بعد الحرب ، ويرجى أن تكفل له سلما دائما ، وعيشا رغدا ، وحياة طيبة تعزيه عما قاساه من ويلات الحرب ، وعاناه من أهوالها .

أجل ، شغل زعماء العالم أنفسهم بوضع هذه القواعد ، واجتمعوا لها فى البر والبحر والشمال والجنوب ، وفكروا فيها فرادى وتدارسوها مجتمعين ، وانتهت الدراسة بوضع أصول عامة لتنظيم العالم المستقبل ، أعنى عالم مابعد الحرب ، وسميت هذه الأصول بميثاق الاطلنطى . وهى تتلخص فيما يأتى :

حرية العبادة ، وحرية التحرر من الفقر والخوف ، وحرية التحرر من الظلم والاستعباد ، وحرية الرأى والقول .

تلك هى أصول هذا الميثاق ، وهو أحدث ميثاق فى العالم ، وضعه عباقرة الامم فى الحرب والسياسة ، واستقبلته الشعوب بمظاهر الغبطة والابتهاج ، واستبشرت بمستقبل رضى ، وعيشى هنى ، وتمنى شيوخ الحاضر أن تمتد آجالهم ليتفيئوا ظلاله ، ويجنوا ثماره .

فلنا أن نتساءل : هل هناك تشابه بين أصول هذا الميثاق وبين ماجاءت به الشريعة المحمدية من أصول ؟ نستطيع أن نجيب فى ثقة واطمئنان بأن هناك تشابها فى عدالة هذه الأصول وجلا لها وحسن أثرها فى إسعاد الأمم والشعوب ، إن تمسكت بها ، واستقامت على هديها ؛ كما نستطيع أن نجيب فخورين بأن للشريعة الإسلامية فضل السبق بها .

فحرية العبادة أساس السياسة الاسلامية ، التى صار شعارها لأهل الكتب السماوية بعد زوال الوثنية من بلاد العرب : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وإنما كانت غزوات محمد عليه الصلاة والسلام لحماية الدعوة ، وتطهير بلاد العرب من الوثنية المنحطة التى كان

عليها أهلها ، وتاليف أمة تمثل الاسلام بين الجماعات العالمية . وإنا نأتى هنا من تاريخ الاسلام بسبب نزول هذه الآية ليتبين منه القارئون المدى الذى بلغه الاسلام فى حماية حرية الاعتقاد ، وهو أن أحد الأنصار كان له ابنان تنصرا قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما ، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما ، فأبيا ، فاختصموا الى رسول الله ، فقال الأنصارى: يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر اليه ؟ ! فنزل قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » الآية . وليس بعد هذا مبدأ فى إطلاق حرية الأديان يبلغ هذا المبلغ .

ووجوب التحرر من الفقر : مبدأ من المبادئ الاسلامية التى حرص محمد وأصحابه على تحقيقه فى الأمة الاسلامية ، وعمل به ليسعد أفرادها وتسعد جماعاتها ، وقد رعى رسول الله الغنم ومارس التجارة ، وفعل أصحابه ذلك ونحوه ، وفى القرآن الكريم : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ، « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » .

وذم الاسلام التواكل والكسل والاستجداء ، ففى الحديث : « لأن يحمل أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ، و« يأتى السائل يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة من لحم » .

وفرضت الزكاة ، وهى جزء من المال يعود به الأغنياء على الفقراء سدا لعوزهم ، وعونا على حاجتهم ؛ وحث القرآن على التصدق بأساليب آية فى التحريض والاغراء : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » ، « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

والتحرر من الظلم والاستعباد : مبدأ من مبادئ الشريعة الاسلامية ، فرضت الجهاد فى سبيله ، وأمرت المسلمين أن يعدوا لأعدائهم ما يستطيعون من القوة ليذودوهم عن أموالهم وأوطانهم ، وفرضت الدفاع على كل مستطيع ، وأوعدت القاعد عن هذا الواجب والفار من الميدان بالخسور والجبن ، وعدت جرائمهم من أشنع الجرائم : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره ، إلا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم ، وبئس المصير » .

وحرية التفكير : عنيت بها الشريعة الاسلامية ، وفى القرآن الكريم والسنة النبوية آيات وأحاديث كثيرة تدعو الى التفكير فى مصلحة الانسان الشخصية ، والمصالح الاجتماعية ، على حسب وجهة نظره الخاصة ، كما عنيت بحرية القول والمجاهرة بالرأى وإن خالف آراء الغير ، والدفاع عنه فى حدود الحرية المشروعة ، والاستعداد للخضوع لأمر الجماعة . لم يكتف الاسلام بإباحة ذلك ، ولكنه حث عليه وعد الضنين به مقصرا فى حق أمته ووطنه ، وفى القرآن

مكتبتنا العربية

الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وفى الحديث : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

ونظمت للدعوة الى الخير المحاضرات الأسبوعية والسنوية فى الجمع والأعياد ، يقوم بها الأئمة فى المساجد يبصرون المصلين بما فيه خيرهم فى معاشهم ومعادهم .

ومما يجدر التنويه به أن الشريعة الإسلامية حين سنت حرية القول أباحتها فى حدود الناموس الأدبى العام فى سبيل الاصلاح ، ولم تبحها فى السباب والمهاترة والجدل الذى يورث الإحن والبغضاء ، ويوجب الخصام والتفرقة ، وفى القرآن الكريم : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون » .

هذه إلمامة عجلى بأصول النظام الذى تطمح اليه الأمم ، وتتمنى أن تسعد فى ظلاله ، سبقت به الشريعة الاسلامية منذ حوالى أربعة عشر قرنا ، وقد دعت الأمة الاسلامية الى هذه المبادئ فى جميع أدوارها التاريخية ، وهى لا تزال تدعو لها ، فاذا كان العالم قد تهيأ لقبول هذه المبادئ اليوم فان المسلمين أهلها وأحق بها ، وها هى يدهم ممدودة لمن يبايعهم عليها .

وصلوات الله عليك يا محمد فى الأولين والآخرين ؟

ابو الوفا مصطفى المراغى

بما تكون السيادة ؟

دخل عمرو بن العاص مكة ، فرأى قوما من قريش قد تحلقوا حلقة ، فلما رأوه رموا بأبصارهم إليه ، فعدل إليهم وقال : أحسبكم كنتم فى شىء من ذكرى .

قالوا : أجل كنا نمثل بينك وبين أخيك هشام أيكما أفضل ؟

فقال عمرو : إن لهشام علىّ أربعة : أمه ابنة هشام بن المغيرة ، وأمى من قد عرفتم ؛ وكان أحب الناس الى أبيه منى ، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد ؛ وأسلم قبلى ؛ واستشهد وبقيت .

وقال الأحنف بن قيس : السودد مع السواد . (يريد بالسواد سواد الناس ودهماءهم ، يقول من لم يطر له اسمه على ألسنة العافة بالسودد ، لم ينفعه ما طار له فى الخاصة ، وهذا صحيح من بعض الوجوه) .

مكتبتنا العربية

الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وفى الحديث : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

ونظمت للدعوة الى الخير المحاضرات الأسبوعية والسنوية فى الجمع والأعياد ، يقوم بها الأئمة فى المساجد يبصرون المصلين بما فيه خيرهم فى معاشهم ومعادهم .

ومما يجدر التنويه به أن الشريعة الإسلامية حين سنت حرية القول أباحتها فى حدود الناموس الأدبى العام فى سبيل الاصلاح ، ولم تبحها فى السباب والمهاترة والجدل الذى يورث الإحن والبغضاء ، ويوجب الخصام والتفرقة ، وفى القرآن الكريم : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون » .

هذه إلمامة عجلى بأصول النظام الذى تطمح اليه الأمم ، وتتمنى أن تسعد فى ظلاله ، سبقت به الشريعة الاسلامية منذ حوالى أربعة عشر قرنا ، وقد دعت الأمة الاسلامية الى هذه المبادئ فى جميع أدوارها التاريخية ، وهى لا تزال تدعو لها ، فاذا كان العالم قد تهيأ لقبول هذه المبادئ اليوم فان المسلمين أهلها وأحق بها ، وها هى يدهم ممدودة لمن يبايعهم عليها .

وصلوات الله عليك يا محمد فى الأولين والآخرين ؟

أبو الوفا مصطفى المراغى

بما تكون السيادة ؟

دخل عمرو بن العاص مكة ، فرأى قوما من قريش قد تحلقوا حلقة ، فلما رأوه رموا بأبصارهم إليه ، فعدل إليهم وقال : أحسبكم كنتم فى شىء من ذكرى .

قالوا : أجل كنا نمثل بينك وبين أخيك هشام أيكما أفضل ؟

فقال عمرو : إن لهشام علىّ أربعة : أمه ابنة هشام بن المغيرة ، وأمى من قد عرفتم ؛ وكان أحب الناس الى أبيه منى ، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد ؛ وأسلم قبلى ؛ واستشهد وبقيت .

وقال الأحنف بن قيس : السودد مع السواد . (يريد بالسواد سواد الناس ودهماءهم ، يقول من لم يطر له اسمه على ألسنة العامة بالسودد ، لم ينفعه ما طار له فى الخاصة ، وهذا صحيح من بعض الوجوه) .

مكتبتنا العربية

عالم مغمور
في الاسرة الغزالية

الامام أحمد الغزالى

كان يعيش فى طوس فى القرن الخامس الهجرى فقير صالح لا يأكل إلا من كسب يده فى عمل غزل الصوف. وكان يطوف على الفقهاء يجالسهم، ويتوفر على خدمتهم. وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع، وسأل الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيها. ويحضر مجالس الوعظ، فإذا طاب وقته بكى، وسأل الله أن يرزقه ابنا واعظا، فاستجاب الله دعوتيه، أما هذا الرجل فهو محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الصوفى، أما ولداه فهما أبو حامد وأحمد.

أما أبو حامد فيقول السبكى: إنه «كان أفقه أقرانه، وإمام أهل زمانه، وفارس ميدانه ـ كلمة شهد بها الموافق والمخالف ـ وأقر بحقيقته المعادى والمخالف».

أما أحمد فيقول: إنه «كان واعظا تنفلق الصم الصخور عند استماع تحذيره، وترعد فرائص الحاضرين فى مجالس تذكيره، فلو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب، ولو رُبط إبليس فى مجالس تذكيره لتاب» (١)

وقد رفع التاريخ أبا حامد فيما بعد، وتحدث به الأجيال، بينما ترك الثانى فى زوايا النسيان، وثوى فى سلك المغمورين الخاملين، بالرغم مما كان له من أثر كبير فى الجيل الذى عاش فيه، وفى أخيه الامام العظيم أبى حامد. وسنحاول أن نبحث فى حياة الامام أحمد الغزالى، وفى صلته بأخيه، وأثره فى غيره من المفكرين، طبقا لشذرات مقتضبة بقيت لنا عن هذا الامام.

(١) أما اسمه فهو على ما يذكر ابن خلكان «أبو الفتوح أحمد بن محمد بن أحمد الطوسى الغزالى الملقب مجد الدين، أخو الامام أبى حامد بن محمد الغزالى الفقيه الشافعى» (٢) ويقول السبكى (٣) وطاش كبرى زاده (٤) أنه كان يلقب بلقب أخيه زين الدين حجة الاسلام.

ولسنا نعرف شيئا عن مولده بالدقة، غير أنه من الثابت أن مولده كان بعد عام ٤٥١ هـ أى بعد مولد أخيه أبى حامد. فمن المرجح إذن أن يكون مولده سنة ٤٥٣ أو ٤٥٢ إذ أن الفارق بينه وبين أخيه فى السن لم يكن كبيرا. فقد ذهبا سويا الى المدرسة كما سنذكر فيما بعد.

---

(١) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ـ ص ١٠٣ (٢) ابن خلكان: وفيات الاعيان ص ٤٩. (٣) طبقات ... ص ٥٤ (٤) طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ـ ص ١٩٢ جـ ٢.

مكتبتنا العربية

أما عن طفولته فقد توفى والده محمد الغزالى ، وهو وأخوه طفلان صغيران . وكان الوالد أميا وعلى غير جانب من اليسار ـ كما ذكرنا من قبل . وقد أوصى الوالد بالولدين الى «صديق له متصوف من أهل الخير ، وقال له إن لى لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين ، ولا عليك أن ينفد فى ذلك ما أخلفه لهما » . ولما مات أقبل الصوفى على تعليم الولدين الى أن فنى ما خلفه لهما أبوهما ، وكان نزرا يسيرا ، وتعذر على الصوفى القيام بنفقتهما فقال لهما : « اعلما إنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد ، وليس لى مال فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ الى مدرسة فيحصل لكما قوت يعينكما » . قال أبو حامد : « فصرنا الى المدرسة نطلب الفقه لتحصيل القوت [١] » .

وليس بين أيدينا من المعلومات ما يوضح لنا اختلافا بين الأخوين فى تلك الفترة . غير أن الفارق الوحيد الذى يمكن أن نلحظه بين أحمد وأبى حامد الغزالى إبان هذا الوقت ، هو بدء تكون الوجدان الصوفى العميق عند أحمد الغزالى ، وظهوره فى حماس نادر أثناء تلاوته أو إنشاده ، أو صلاته ، وفى حبه للعزلة والخلوة . أما أبو حامد ، وهو تلك العقلية الجبارة التى لم تر عصور الاسلام لها مثيلا ، فكان يتجه اتجاها آخر غير صوفى ، بل كان يعد لحياة أخرى فقهية وعقلية بعيدة عن تقاليد الصوفية . وكانت الأم تلحظ اتجاهى ولديها فى الحياة فتدعو الله آناء الليل وأطراف النهار أن ينهج أبو حامد نهج أخيه أحمد العابد المتبتل الصغير ، وأن يهتدى الى طريق العبادة وحده ، كما اهتدى أخوه الأصغر .

ولم تذكر لنا المصادر القليلة التى تكلمت عن أحمد الغزالى شيئا عن دراسته الفقهية ولا عن أساتذته ، غير أنه يبدو أنه درس الفقه دراسة تامة . فقد ذكر صاحب وفيات الأعيان أنه « كان من الفقهاء غير أنه مال الى الوعظ (٢) . ويذكر ابن السبكى وطاش كبرى زاده أنه تفقه ثم غلب عليه التصوف » [٣] وهذا ما يردده صاحب مرآة الجنان ، وينقله عنه فى ألفاظه صاحب شذرات الذهب . (٤)

من هذا نصل الى أن أحمد الغزالى لم يدخل حظيرة الصوفية إلا بعد أن درس علوم الشريعة محققا بذلك الفكرة التى كان ينادى بها الصوفية السنيون ، وهى ضرورة الجمع بين علوم الظاهر وعلوم الباطن ، أو بين علوم الشريعة وعلوم الحقيقة .

اختلفت المسالك بعد ذلك بين الأخوين ـ أما أبو حامد فقد سار فى طريق الفقه ، ثم انتقل الى الكلام والفلسفة ؛ وأما أحمد « فقد غلب عليه الوعظ ، والميل إلى الانقطاع والعزلة ، وكان

---

[١] ابن السبكى : حـ ٢ ص ١٠٣ . وإتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين لابن المرتضى حـ ١ ص ٧ . وطاش كبرى زاده : مفتاح حـ ٢ ص ٢٠٢ (٢) وفيات ص ٤٩ (٣) : طبقات ص ٥٤ ، مفتاح ص ٢٠٢ حـ ٢ [٤] مرآة ص ٢٢٥ حـ ٢ شذرات ص ٦٠ حـ ٤ .

مكتبتنا العربية

صاحب عبارات وإشارات (١) » . ويذكر ابن النجار فى تاريخ بغداد أنه « خدم الصوفيه فى عنفوان شبابه، وصحب المشايخ، واختار الخلوة والعزلة حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم (٢) » فإذا ما انتهى من هذا الدور خرج الى همذان . يدل على هذا ما يذكره الحافظ السلفى « حضرت مجلس وعظه بهمذان وكنا فى رباط واحد، وبيننا ألفة وتودد، وكان أذكى خلق الله وأقدرهم على الكلام فاضلا فى الفقه وغيره (٣) » . وقد طوف البلاد واعظا من أندر الواعظين . وقد سبقته شهرته الفياضة، فأقبل عليه الناس فى كل مكان حل به . يقول طاش كبرى زاده « وكان يدخل القرى والضياع، ويعظ لأهل البوادى تقربا الى الله تعالى » . ويقول صاحب شذرات الذهب « وعظ مرة عند السلطان محمود فاعطاه ألف دينار (٤) » ثم انتهى به المقام فى بغداد . يقول ابن النجار « ودخل بغداد وظهر له القبول التام، وازدحم الناس على حضور مجلسه » . وفى بغداد اجتمع أحمد بأخيه أبى حامد، وكان سبقه اليها وبلغ من الشهرة مالم يبلغ مفكر من مفكرى الاسلام من قبل . ولم تكن العلائق بين الأخوين منقطعة، بل على العكس كانت طيبة الى حد كبير بالرغم من اختلاف كل منهما فى وسائله . فبينما أحدهما يشرع للناس ويحكم فى أقضيتهم، ويجادل عن عقائدهم، ويناقش الباطنيه والفلاسفة ـ كان أحمد يرمى الدنيا ببصره النفاذ، فيراها دار غرور وخداع فينأى عنها، ويدعو الى الزهد فيها أينما حل . ويقص صاحب مرآة الجنان (ص٢٢٥ حـ ٣) أن إنسانا سأله عن أخيه أبى حامد أين هو ؟ فقال : فى الدم . وذكر لأبى حامد ذلك فقال : صدق، كنت أفكر فى مسألة من مسائل المستحاضة . وبقى أحمد فى بغداد بعد أن تحول أخوه أبو حامد الى التصوف، وخرج منها . وتقص السير أن أبا حامد عهد الى أخيه أحمد بالتدريس فى النظامية، فقام أحمد بذلك حتى عاد أخوه اليها . وقد عاش فى بغداد مدة، ثم عاد الى طوس مع أخيه، إذ يذكر ابن المرتضى وفاة أبى حامد عن أخيه محمد . ووفاة أبى حامد كانت فى طوس سنة ٥٠٥ . وعاد أحمد الى التنقل ثانية بعد وفاة أخيه حتى توفى سنة ٥٢٠ هـ فى قزوين ودفن بها .

٢ — تأثير أحمد فى معاصريه : يجمع المؤرخون على أن الامام أحمد الغزالى كان من أعاظم الوعاظ فى الاسلام، غير أنه لا يهم هذا الدراسة العلمية التاريخية بقدر ما يهمها أثره فى معاصريه من المفكرين، وأول هؤلاء المفكرين أخوه أبو حامد الغزالى .

أما مظهر تأثير أحمد فى أخيه العظيم فيبدو فى دعوته إياه الى طريق التصوف والزهد . ويرى ابن المرتضى أن سبب سياحة أبى حامد وزهده، أنه كان يوما يعظ الناس، فدخل عليه أخوه أحمد وأنشده :

---

[١] شذرات . نفس المصدر . [٢] مفتاح حـ ٢ ص ١٩٢ . [٣] طبقات . نفس الصفحة .
[٤] شذرات . نفس الصفحة .

مكتبتنا العربية

أخـذت بأعضادهم إذ ونوا وخلفك الجهـد إذ أسرعوا
وأصبحت تهدى ولا تهتدى وتسـمع وعظا ولا تسـمع
فيا حجر الشـحر حتى متى تسن الحـديد ولا تقطع

فكان ذلك سببا لتركه علائق الدنيا [١] .

ويرى الأستاذ ماسينيون Massignon فى كتابه Recueil de Textes inédits P. 94 - 95 أن لأحمد الغزالى تأثيرا على أخيه الأكبر أبى حامد ، وأنه هو الذى دعاه الى الحياة الصوفية ، ولـكنه يقرر أن أحمد لم يستطع أن ينقل أخاه الى تلك الحالة من حالات الحب الصافى التى تبدو مشرقة فى كتبه .

نستطيع أن نستخلص من هـذا أن هذا الواعظ المشهور استطاع أخيرا أن يحول أخاه المشهور الى طريق التصوف ، وقد بلغت هـذه الحال الصوفية عند أخيه مبالغا عظيما ، فترك التدريس فى النظامية مدة ، وأثرت على حياته وعلى تفكيره أكبر تأثير .

أما المفكر الثانى الذى أثر فيه أحمد الغزالى ، فهو عين القضاة الهمذانى أبو المعالى عبد الله ابن محمد الميانجى (٥٢٥) يقول الأصفهانى « عين القضاة الميانجى كان من أكابر الأئمة والأولياء وذوى الكرامات ، وقد خلف أبا حامد الغزالى فى المؤلفات الدينية ، والمصنفات ، فحسده جهال الزمان المتلبسون بزى العلماء ، ووضعهم الوزير (أبو القاسم الدركزين) عليه فقصدوه بالايذاء ، وأفضى الأمر به الى أن صلبه الوزير بهمذان ولم يراقب فيه الله ولا الايمان [٢].

ويقول ماسينيون فى ترجمته : إنه كان تلميذ أحمد الغزالى المفضل ، وإنه : أى عين القضاة ، نشر عنه كتاب سوانح العشاق وترجمه الى الفارسية [٣]

أما المفكر الثالث الذى أثر فيه أحمد الغزالى فهو الفريد العطار (٦١٦ هـ) وهو شاعر صوفى فارسى ، وقد ذكر ماسينيون أنه نمى وأكمل الأسس العامة لفكرة الحب الإلهى البحت كما وضع قواعدها أحمد الغزالى [٤]

وقد ذكر السهروردى فى عوارف المعارف (ص ٥٤ حـ ١) أن بعض أبناء الدنيا جاءوا الى الشيخ أحمد الغزالى بأصفهان ليتعلموا منه أدب الخرقه فأرسله الى أحد مريديه . فأخذ هـذا المريد يحدثه عن الخرقة وحقوقها ، وآداب من يلبسونها ، فاستعظم هذا ورجع الى الشيخ أحمد

[١] اتحاف السادة ص ٨ جـ ١

[٢] ذكر صاحب مرآة الجنان أن عين القضاة « دخل فى التصوف ودقائقه . حتى ارتبط عليه الخلق ثم صلب بهذان على تلك الالفاظ الكفرية . . . جـ ٣ ص ٢٤٤

[3] Massignon . . . P. 95

[4] Ibid . . . P. 115

مكتبتنا العربية

وأخبره ، فعاتب مريده وقال له : إذ ألزمنا المبتدى بذلك نفر وعجز عن القيام به ، وهـذا يدل على أثر أحمد الغزالى فى الدعوة إلى الزهد والتصوف .

٣ — مذهبه ومؤلفاته : لم تصل الينا مؤلفات أحمد الغزالى ولا مؤلفات تلميذه وإن كان نشر أحـدها بالفارسية ، حتى نستطيع عرض مذهبه الصوفى كاملا ، إذ يبدو أن لأحمد الغزالى مذهبا صوفيا خاصا ، أشار اليه ماسينيون إشارة عامة فقال : إنه مذهب الحب البحت أو الصافى L'amour pur ولاشك أن عين القضاة كان قال هذا المذهب ثم أخذه الفريد العطار . ولـكن ماسينيون لم يشرح بل ولم يعرف هذا الحب عند أحمد الغزالى ولا عند تلامذته ، بل لا نستطيع أن نعرضـه عرضا عاما أو تفصيليا ، أو أن نعتبره أو أن نميزه عن فـكرة الحب الإلهى المعروفة عند الصوفية .

أما عن مؤلفات أحمد الغزالى : فيذكر المؤرخـون أنه اختصر كتاب إحياء علوم الدين فى مجلد واحد سماه لباب الإحياء ، وأن له كتابا آخر اسمه الذخيرة فى علم البصيرة ، ولم تصل الينا هذه الـكتب ، غير أننا نستطيع أن نصل الى بعض آثاره مما كتبه مؤرخو الطبقات . وقد نشر ماسينيون نصا بالفارسية له عن كتاب سوانح العشاق الذى يقـول إن عين القضاة الهمذانى نشره عن أحمـد الغزالى ، كما نشر له بعض النصوص من مخطوطة القصاص لابن الجوزى .

٤ — اتهامه فى دينه : اتهم أحمد الغزالى فى دينه . يقول صاحب شذرات الذهب عنه : « كان رقيق الديانة متكلما فى عقيدته ـ حضر يوسف الهمذانى عنده فسئل عنه فقال : مدد كلامه شيطانى لا ربانى ، ذهب دينه والدنيا لا تبقى له » . وفى فقرة أخرى يقول «وقد تكلم فيه غير واحد وجرحوه». ويقول صاحب مرآة اليقظان : «أثنى عليه الحافظ ابن النجار وغيره من العلماء والأولياء ، ولا التفات لما أورده الذهبى من بعض الطعن عليه » . وهذا يثبت أن الذهبى طعن على أحمد الغـزالى أيضا ، وليس بين أيدينا تاريخ الذهبى حتى نستطيع الحـكم على رأى الذهبى فيه ، وليس بين أيدينا أيضا كتب لأحمد الغـزالى لتبين لنا عقيدته ، وإن كان ابن الجوزى ينقل إلينا فى النصوص التى نشرها ماسينيون بعض النصوص الغزالية التى لا تتفق كثيرا مع أقوال علماء الشريعة من أهل الظاهر ؟

على سالم النشار
ماجستير فى الفلسفة

مكتبتنا العربية

وادى السعادة

— ٢ —

وصل الأمير وصحبه الى القاهرة ، فوجد مدينة كبيرة مرحة ، زاهية بالنهار ، متلألئة الأنوار بالليل ، ووجد أهلها وادعين يحبون الضيف ويكرمونه ، إلا أنهم لا يحبون أن تثقل الدنيا كواهلهم بأعبائها ، فهم يعملون نهارا بالقدر الذى يكفى للعيش ، ويقضون الليل فى راحة وسرور ؛ يكرهون الأعمال الشاقة ، ويتجنبون الخطرة منها والتى تحتاج الى المجازفة ، ويقنعون بالرزق الثابت المضمون ، ولو كان قليلا .

ورأى الأمير بجانبهم طائفة من أهل الغرب نشيطة ، كثيرة الحركة ، تملو وجوههم أمارات الجد ، وعلائم الاهتمام ، يقيمون فى أحسن أحياء المدينة وأبهجها ، وينعمون بثمرات جهودهم ، وأهلها يقيمون فى أحياء متواضعة ، راضين بالقليل . والذى لفته بعنف أن كل أحد منهم لا يعيش إلا لنفسه ، ولذلك لم ير شركات تجارية أو صناعية برءوس أموال كبيرة ، لتقوم بالمشروعات الهامة الوفيرة الأرباح ، وإنما رأى صناعات يدوية ، وتجارات صغيرة فردية ، تموت بموت أصحابها ، وهم مع ذلك رخيو البال لا ينفكون عن المزاح فى مجالسهم ومنتدياتهم .

عجب الأمير كيف رضى المصرى بالقليل والكثير فى متناوله بقليل من الجهد ، وكيف يعيش لنفسه وأمامه الأجنبى لا يرضى بالقليل ويعيش نافعا لجنسه وقومه ، فسأل زميله الحكيم عن سر هذا الأمر .

الحكيم — إن ما تراه من خلاف بين المصرى والأجنبى فى وجهات النظر الى الحياة ، إنما هو خلاف بين بقايا فلسفتين : فلسفة الشرق وفلسفة الغرب ، فالأولى كانت فى أيام عزها تعنى بالروح وتعمل على السمو بها مع الاشتغال بالماديات حتى ينال أهلها الحسنيين فى وقت معا ، ولكن خلفتهم أجيال أساءت فهم هذه الفلسفة العالية ، فدعت الى تحقير الماديات ، والتعويل على السمو الروحانى وحده ، وبثت دعوتها الى التقشف والزهد والتقليل من الطعام والانقطاع الى الخلوات والصوامع ، ومؤدى كل ذلك الرضا بالقليل والقناعة بالحظ المنقوص .

أما الفلسفة الثانية فكانت تعنى بالجسد وتعمل على ترفيهه ، باجابته الى مطالبه وشهواته ليقوى أهلها ويكملون .

واتخذت الفلسفة المحرفة الأولى طريقها الى الروحانيات ، وامتلأت بطون كتب هذا العصر بأقاويل وفيرة فى هذا الموضوع ، وانساقت الثانية الى الماديات . وأكثرت الأولى من بحوث الآخرة وما يجب أن يزود به المرء ليحظى بالجنة ؛ وأكثرت الثانية من البحوث الدنيوية ، وما يجب أن يعمله المرء ليحظى بأوفر نصيب من خيرها وثرواتها .

مكتبتنا العربية

سقط الناس فى جهالة عمياء فى الشرق ، فنسوا غاية فلسفتهم فماتت بين أيديهم ، ولم يبق فيهم إلا هيكلها، فهم يدعون الى القناعة والرضا بالقليل ، ولا يدرون مغبة هـذه الدعوة . وعمل أهل الفلسفة الثانية على طريقتهم ، فنمت أموالهم، وزادت خيراتهم ،وتقدمت صناعاتهم ، وهذا أيها الأمير سبب الخلاف فى المعيشة بين المصرى والأجنبى .

أما ماتراه على المصرى من مرح وفرح ، فليس ذلك عـلامة على السعادة ، فيحسن بك أن تغشى بيئاتهم ، وتسبر نفوسهم ، لتعرف هل هم سعداء حقا أم على النقيض من ذلك .

رأى معلمى الادب فى السعادة :

فوعده الأمير وخرج باحثا عن السعادة فى بيئات القاهرة المختلفة ، فجال فى شوارع القاهرة حتى جاء الى مسجد ، ورأى الناس يدخلون وينتظمون فى حلقة حول أحد المتصدين للوعظ ويستمعون الى ما يلقيه اليهم عن فواجع الدهر ورزاياه ، فانخرط فيهم ، فسمع الأستاذ يحمل على الشهوات ويقبحها ، ويدعو الى محاربتها ، ويعد السعادة الدائمة لمن يرضى بالقضاء ، ويقنع بما قسم ، ويقول : إن الانسان بعد أن يتغلب على شهواته ويخلص من الجزع بالرضا بما قسم ، لا يكون عبدا للشهوات ولا أسيرا للأمل . وأخذ يستحث تلاميذه على الايمان بذلك ، وعلى إشاعة هذه الدعوة بين الناس ، وساق من الآيات والأحاديث التى لم يحسن فهمها والأقوال التى لم يمحض صحتها، والأشعار التى لم يحسن روايتها ، مالا يدع للشك مجالا فى صحة ما يدعو اليه .

سر الأمير بما سمع ، وتقرب الى الأستاذ واستأذنه فى أن يكون من تلاميذه وآخـذى الحـكمة عنه ، فرحب الأستاذ به .

التقى بعد ذلك الأمير بالحـكيم ، وقال له :

الأمير ـ لقـد وجدت أيها الحـكيم رجلا سما بروحه الطاهرة فوق متناول الشهوات ، وهو ينظر من عل على الألوان المتباينة من الحياة ، وقد عزمت على أن آخذ الحـكمة عنه وأسير فى الدنيا سيرته .

الحـكيم ـ لا تعجل يامولاى وتأمن لمعلم الحـكمة والأدب ، فانهم يتكلمون بكلام الملائكة ويعملون بأعمال الانسان .

فغضب الأمير لهذا القول وانصرف الى الدرس . تتالت الأيام حتى كان يوم حضر فيه الأمير ليتلقى عن الشيخ فلم يجده ، وعلم أن الموت اختطف ولده الوحيد ، وكان طبيبا ناجحا ، فاغتم الأمير لذلك وجرى الى منزل الأستاذ ليعزيه، فوجد الشيخ قد برح به الأسى ، لا تجف

مكتبتنا العربية

له دمعة ، فأخذ يواسيه بما كان يسمع منه من ترك الجزع ، والرضا بقضاء الله ، والنزول على حكمه .

الأستاذ ـ هذا ما أحب ، ولكنى لا أستطيع احتمال مصابى ، فقد كنت أسكن من قبل دارا صغيرة بجوار المسجد ، وأتبلغ مما يتيسر لى من الكسب الضئيل حتى نبغ ولدى فى مهنة الطب ، وكثر المال فى يديه ، فاستأجر لنا هذا القصر الصغير ، واستخدم لنا طاهيا يعد لنا شهى المآكل ، واشترى لى عربة أركبها فى ذهابى الى المسجد وعودتى منه ، والآن وقد مات ، فان نعمة الغنى قد زالت ، وشقوة الفقر قد لاحت . هذا هو بلائى ، فهل يهون على أن أعود الى الدار الصغيرة وآكل طعام الأسواق ؟ !

الأمير ـ هذه شهوة تغلبها بالقناعة كما علمتنا .

الأستاذ ـ لا أستطيع ، فانى كلما أفكر فى ذلك أصرخ من فرط الألم . وإن التاسى لألفاظ حلوة يقولها الخلى للمهموم ، ولكنها لا تجلى الهموم ما دامت نتائج المصيبة قائمة .

خرج الأمير من عند الشيخ حيران كأنه قد فقد شيئا ، حتى التقى بالحكيم ، فقص عليه ما وقع له مع الشيخ .

الحكيم ـ سيدى الأمير اصدق الشيخ فى قوليه ، فالقول الأول وهو وجوب الرضا بقضاء الله ، معناه الرضا بالأمر الواقع الذى لا يستطاع رده وهو موت ولده ، وهذا الرضا إذا استطيع يلطف شدة الصدمة الأولى للنكبة ، ولكنه لا يزيل نتائجها المادية ، وهى العسر المالى بعد الميسرة ، وهنا يأتى القول الثانى للشيخ وهو أن التأسى بالألفاظ لا يجلى الهموم ما دامت نتائج المصيبة قائمة .

فعلى المصاب بعد أن يستجم من مصيبته ، أن يجمع أمره على النهوض مما تردى فيه ، ويعالج النتائج التى جدت ، وفى مثل حالة الاستاذ يكون عليه ، وقد أوتى علما ، أن يعمل للاستزادة من الرزق ، مادامت نفسه كبيرة لا ترضى بالقليل . ولا تفهم يامولاى القناعة على أنها الرضا برزقك الحالى ، والاستنامة له ، وإنما هى الرضا به حالا حتى لا تتنغص عليك حياتك ثم العمل للمزيد .

الأمير ـ صدقت أيها الحكيم ، إنما يظهر لى أن الحياة العامة ملأى بالرزايا والآلام ، لا يمكن التخلص منها أبدا ، لأنها وليدة طبيعتها ، فحيث توجد حياة عامة ، توجد رزايا وآلام . أما إذا زهد الانسان فيها ، وانسحب منها الى خلوة ، كان بمنجاة من شرورها وتباريحها . وقد علمت أنه يسكن بأعلى جبل المقطم ناسك ورع ، كان من قبل موضع حفاوة الدنيا وإقبالها ، فانزوى عنها قبل أن تعضه بنابها ، وسكن الى صومعته ، فهلم بنا الى زيارته وسماع نصحه .

مكتبتنا العربية

الحياة فى صومعة :

دخل الأمير والحكيم على الناسك فى صومعته بأعلى جبل المقطم ، وبعد السلام عليه قال الأمير :

الأمير — جئناك أيها الناسك لنأخذ عنك الحكمة ، فأن من علا مثلك عن الدنيا بعد طول التجربة ، وزهد فيها وهى مقبلة عليه ، حقيق بأن يحتذى مثاله .

الناسك — إنى لا أحب أن يحتذى أحد مثالى ، فقد أخطأت فيما فعلت ، لقد كنت وأنا شاب ضابطا فى الجيش ، رفعتنى كفايتى الى الرتب العالية ، وابتسم لى الدهر وداعبنى ، فأمنته ، ولكن لم ألبث أن رأيت الدهر يغمز بعينه لضابط أصغر منى ، ورأيت الرؤساء مقبلين عليه مولين ظهورهم لى ، فتأذت نفسى ، وعافت وظيفتى ، فتسللت الى هذه الصومعة لأقضى ما بقى من عمرى فى هدوء وسكينة ، بعيدا عن حياة كلها تكاليف ومتاعب ، وقد سررت أول الأمر عندما حللت هنا ، بعيدا عن ضوضاء العالم ، سرورا لا يعادله إلا سرور النوتى إذا دخل الميناء بعد رحلة طويلة فى بحر هائج متلاطم الأمواج .

ولما استقر بى المقام ، وبليت جدة المكان ، وألفت العيشة الجديدة ، أخذت أقضى وقتى فى دراسة نباتات الأرض ومعادنها ، ولكن هذه أيضا فقدت لذتها قليلا قليلا ، حتى أصبحت الآن لا أجد لعملى طعما ، بل على النقيض أجد فيه عناء ممضا . وقد بدأت أحس فى نفسى الضجر والملل ، وأشعر بالخجل من أننى أبقت من ميدان القتال ولم أستطع أن أتحامى الرذائل وأباعد بينى وبينها إلا بالهرب من الحياة ، وحرمان نفسى من إمكان اقتناء الفضائل واكتساب المحامد .

أليس هذا إباقا لا يليق بالرجال ؟ أنا لم ألجأ الى الوحدة إلا مقتا لما أحاط بالحياة من مآثم ومتاعب ، والآن هدأت ثورتى ، واطمأنت نفسى ، وأخذت أقارن بين شرور المجتمع الانسانى وبين مزاياه ، لأنه لا يخفى أن للمجتمع مزايا كما أن له شرورا ، وأن له محاب كما أن له مكاره ، وقد صحت عزيمتى بعد أن رجحت لدى كفة المزايا والمحاب على العودة ، وقد حزمت أمتعتى ، وإنى مبارح صومعتى غدا الى القاهرة .

وفى الصباح الباكر قفل الجميع راجعين الى القاهرة ، وكان الزاهد كلما اقترب منها ينظر اليها نظرة العاشق الولهان ؟

« يتبع »

عبد السلام محمود

مكتبتنا العربية

وقعة الفتح الاعظم (فتح مكة)

من الالياذة الاسلامية

تفضل شاعر مصر النابغة أحمد محرم فآثر مجلة الازهر بقصيدته فى وقعة الفتح من إلياذته الاسلامية التى حاكى بها إلياذة شاعر اليونان الاقدم هومير فى تمجيد أبطال بلاده ، فننشرها فى مناسبة المولد النبوى معجبين بأدبه .

جعل النبى صلى الله عليه وسلم لواء المهاجرين مع الزبير بن العوام ، وأمره أن يدخل مكة من (كداء) وأن يركز رايته بالحجون ، ثم يمكث عندها لا يبرح حتى يأتيه ، وبعث خالد ابن الوليد فى كتائب من قضاعة وسليم وأسلم وغفار ومزينة وجهينة وغيرهم ، وأمره أن يدخل من أسفل مكة ، وقد تجمع بها ناس من بنى بكر ، وبنى الحارث بن عبد مناف ، وناس من هذيل ، فقاتلوا خالداً ، ومنعوه الدخول ، وشهروا السلاح ، ورموه بالنبل ، وقالوا : لا تدخلها عنوة ، فقاتلهم وانهزموا ، واشتد الأمر بمكة ، فصاح حكيم بن حزام ، وأبوسفيان : يا معشر قريش : علام تقتلون أنفسكم ؟ من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن وضع السلاح فهو آمن ، فجعلوا يقتحمون الدور ، ويغلقون أبوابها ، ويطرحون السلاح فى الطرق فيأخذه المسلمون ، وقد أيد الله رسوله وأدخله مكة فائزا منصورا .

ديار (مكة) هذا (خالد) دلفا ... فما احتيالك فى الطود الذى رجفا ؟
طود من الشرك خانته جوانبه ... لما مشى نحوه الطود الذى زحفا
إن الجبال التى فى الأرض لو كفرت ... لدكها (جبل الاسلام) أو نسفا
لما دعاه (بسيف الله) (سيده) ... زاد السيوف به فى عزها شرفا
(ديار مكة) أما من يسالمه ... فلا أذى يتقى منه ولا جنفا
تلك الوصية ما يرضى بها بدلا ... ولا يرى دونها معدى ومنصرفا (١)
لا تجزعى ، إنه العهد الذى انبعثت ... أنواره تصدع العهد الذى سلفا
ليل الأباطيل ما التفت غياهبه ... على الحقائق إلا انجاب وانكشفا
هن المنايا ، فيالقوم من بطل ... رموا به حيةً من حية خلفا
ضاقوا بسعد (٢) فقالوا : قائد حنق ... لو جاوز الحد بعد الحد ما وقفا

---

(١) أوصاه النبى صلى الله عليه وسلم أن يغرز رايته عند أدنى البيوت من مكة ، وأن لا يقاتل إلا من يقاتله . (٢) سعد بن عبادة ، سمعه أبو سفيان يقول : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ، أى يقتل من يهدر دمه ولو تعلق بأستارها ، فقال للنبى : أمرت بقتل قومك ؟ قال لا ، فذكر له ما قال سعد وناشده الرحم ، فقال : يا أبا سفيان : اليوم يوم المرحمة . ثم تعرضت امرأة فأنشدته أبياتا منها : =

مكتبتنا العربية

واستصرخوا من رسول الله ذا حدب ... إذا استغاث به مستصرخ عطفا
هبت الى الشر من جهالهم فئة ... لم تأل من جهلها بغيا ولا صلفا
واستنفرت من قريش كل ذى نزق ... إذا يشار إليه بالبنان هفا
فخاضها (خالد) شعواء كالحة ... إذا جرى الهول فى أرجائها عصفا
رمى بها مهج الكفار ، فاستبقت ... تلقى البوار ، وتشكو الحين والتلفا
وقال قائلهم : أسرفت من بطل ... ما كان أحسنه لو جانب السرفا
وهاج همّ (أبى سفيان) ما وجدوا ... فراح يشفع فيهم جازعا أسفا[١]
فلان قلب (رسول الله) مرحمة ... ورق من شدة البطش الذى وصفا
وقال : سر يارسولى فانه (صاحبنا) ... عن القتال ، فحسبى ما جنى وكفى

* * *

مضى الرسول يقول : اقتل ، فهيجها ... مشبوبة هتفت بالويل إذ هتفا
وعاد والدم فى آثاره سرب ... والقوم من خلفه يدعون : واهفا
قال (النبى) ألم تذكر مقالتنا ... (لخالد) أعصيت الأمر أم صدفا؟؟
فقال : بوركت ، إن الله حرفها ... وما تغير لى رأى ، ولا انحرفا
سبحانه ، إنّ أمر الناس فى يده ... لا يعرف المرء من خافيه ما عرفا

* * *

لا يجزع القوم ، إن السيف مرتدع ... عما قليل ، وإن النصر قد أزفا
لم يرفعوا الصوت حتى لاح بارقه ... تحت العجاجة ، يجلو ضوؤه السدفا[٢]

= إن سعدا يريد قاصمة الظهـ ... ـر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجى لو يستطيع من الغيـ ... ـظ رمانا بالقسر والعوّاء

فأمر صلى الله عليه وسلم بأخذ الراية منه ودفعها الى ولده قيس ، ثم خشى سعد أن يقع من ابنه شىء ينكره النبى ، فسأله أن يأمر بأخذها منه ففعل ، وبقى سعد فى مقدمة كتيبة الرسول الكريم ولا راية معه ، وهو بذلك راض ، رضى الله عنه .

(١) جاء أبو سفيان فقال : أبيحت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، فقال لرجل : اذهب الى خالد فقل له لا تقتل ، فذهب الرجل وأجرى الله على لسانه : إن نبى الله يقول لك : اقتل من قدرت عليه ، فقتل سبعين رجلا ، فلما رجع الى النبى وكان قد علم بأمر القتلى قال له : ألم آمرك بأن تدعو خالدا الى الكف عن القتل ؟ فذكر له ما كان وقال : أردت أمرا وأراد الله غيره ، فكان أمر الله فوق أمرك ، وما استطعت إلا الذى كان . (٢) السدف الظلم .

مكتبتنا العربية

هذا (الزبير) ترامى فى كتائبه كالسيل ، لا تمسك الأسداد ما جرفا
يلقى (كدءا) به والخيل راكضة ماقال حسان من قبلى وما ازدهفا(١)
الله أكبر ، جاء الفتح وابتهجت لهؤمنين نفوس سرهـا وشفى
مشى (النبي) يحف النصر موكبه مشيعا بجـلال الله مكتنفـا
أضحى(أسامة)من بين الصحاب له [٢] ردفاً ، فـكان أعز الناس مرتدفا
لم يبق إذ سطعت أنوار غرته مغنى (بمكة) إلا اهتز أو وجفا
تحرك (البيت) حتى لو تطاوعه أركانه خف يلقى ركبه شغفـا
وافاه فى صحبه[٣]من كل مزدلف[٤] فلم يدع فيه للـكفار مزدلفـا
العاكفون على الأصنام أضحكهم أن الهوان على أصنامهم عكفا [٥]
كانوا يظنون أن لا يستباح لها حمى ، فلا تمماً أبدت ، ولا أنفـا
نامت شياطينها عنها مذممـة وبات ماردها بالخزى ملتحفا
هوت تفاريق ، وانقضت محطمة كأنها لم تكن إذ أصبحت كسفا [٦]
ريعت (شيوخ قريش) من قذائفها وريع منها (الخزاعى) الذى قذفا

(١) لمـا دخل النبي مكة رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر ، فتبسم وقال لأبى بكر : ما ذا قال حسان ؟ فأنشده :

عدمت بنيتى إن لم تروها تثير النقع ، موعدها كداء
ينازعن الأعنة مسرجات يلطمهن بالخمر النساء

فقال النبي : ادخلوها (يعنى مكة) من حيث قال : ازدهف الرجـل الرجل أو الشيء : استعجله ، وتزيد ورفع صوته فى الـكلام ، وأبطل قول غيره .

(٢) أسامـة بن زيد رضى الله عنه (٣) انتهى النبى الى الـكعبة ومعه المسلمون ، فاستلم الركن بمحجنه ، وكبر فـكبروا مرجعين حتى ارتجت مكة ، وكان يشير اليهم أن اسكتوا ، وكان محمد بن مسلمة يأخذ بزمام ناقته فى طوافه (٤) ازدلف: تقدم وتقرب (٥) قال ابن عباس : كان على الـكعبة يوم الفتح ثلاثمائة وستون صنما ، لـكل حى من أحياء العرب صنم ، قد شدوا أقدامها بالرصاص ، فجعل النبى يهوى بقضيب كان معه الى كل صنم فيها فيهوى ، وأنه كان يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، وكان هبل من أعظم هذه الأصنام ، فجاءه النبى ومعه قوس جعل يطعن بها فى عينيه وهو يقول : جاء الحق ... ثم أمر به فـكسر ، وبقى من هـذه الأصنام على الـكعبة صنم كبير من نحاس — وقيل من صفر — لخزاعـة ، جعلوا له أوتادا من الحديد مثبتة فى الأرض ، فأمر النبى على بن أبى طالب أن يرميه ، فرمى به وكسره (٥) الـكسف : القطع .

رأته ينحط من عليائه فزعاً ... من بعد ما أفزع الأجيال مشترفا (١)
وما درى (هبل) والطعن يأخذه ... هل غور الدمع فى عينيه أم ذرفا ؟
لو كان للدم يجرى حوله دفعاً ... طول المدى مَشْعَب (٢) فى جوفه زفا
رمى به الله ، يحمى (البيت) من عبث ... يعاف باطله من عاف أو عزفا (٣)
لم يبق (بالبيت) أصنام ولا صور ... زال العمى ، واستحال الأمر فاختلفا (٤)
للجاهلية رسم كان يعجبها ... فى دهرها ، فعفت أيامها وعفا
لا كنت يا زمن الأوهام من زمن ... أرخى على الناس من ظلمائه سجفا
إن (الشريد) [٥] الذى قد كان يظلمه ... ذوو قرابته قد عاد فانتصفا
رد الظلامة فى رفق وإن عنفوا ... ولو يشاء إذن لاشتد أو عنفا
إن (الرسول) لسمح ذو مياسرة ... إذا تملك أعناق الجناة عفا
شكراً (محمد) إن الله أصبغها ... عليك نعمى ترامى ظلها وضفا
وعد وفى (لامام المرسلين) به ... والله إن وعد الرسل الكرام وفى
خذ (المحصب) (٦) إن وافيته نزلا ... واذكر به ذلك (الميثاق) و (الحلفا)
قد عاد يكلف بالاسلام من رشد ... من كان بالكفر من غى الهوى كلفا
ثم استقام على البيضاء يسلكها ... من كان يضرب فى العمياء معتسفا
مشى طليقاً الى غاياته مرحا ... وكان فى القيد إن رام الخطى رسفا
يغشى موارد للايمان صافية ... ما امتاح [٧] من مثلها يوماً ، ولا اغترفا
عادوا طهارى ، فلم يعلق بهم وضر ... مما جنى الكفر قبل الفتح وافترفا
تتابع القوم أفواجا ، فآمنهم ... (دين السلام) وأمسى الأمر مؤتلفا

(١) المشترف : المنتصب (٢) المشعب : مسيل الماء من الحوض (٣) عزف عن الأمر زهد فيه وانصرف عنه (٤) أبى النبى أن يدخل البيت وفيه ما فيه من التماثيل التى اتخذها القوم على صور شتى ، فأمر بها فأخرجت ، ثم نادى مناديه : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره ، فكسروا الأصنام التى كانت فى بيوتهم ، وعمدت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان الى صنم كان عندها ، فجعلت تضربه وتقول : كنا منك فى غرور ! ثم بعث النبى السرايا لكسر الأصنام التى كانت حول مكة (٥) النبى صلى الله عليه وسلم .

(٦) قال النبى : إذا فتح الله لنا مكة نزلنا بالخيف — خيف بنى كنانة ، يعنى المحصب — وهو المكان الذى تحالفت فيه قريش وكنانة على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب حتى يسلموه اليهم ، وقد فتحت مكة وفعل ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

(٧) امتاح الماء غرفه .

مكتبتنا العربية

كذلك الحـــق يعلو فى مصاعده ... حتى ينال الذرى ، أو يبلغ الشعفا [١]
مرمى العقول إذا ما غرها هـــدف ... فلن تريد سواه إن رمت هـدفا
وما على الحق من بأس ولا حرج ... إن هوم العقـــل عنه مرة فغفا
إن الذى جعـل الاسـلام معقله ... أعلى لأمته الأركان والسقفا
لم يرض ما نال من مجـــد فأورثه ... مجـدا طريفا ، وعزا منه مؤتنفا [٢]
شتان ما بين صرح ثابت رفعت ... منه القباب ، وصرح واهن خسفا
لتنصت الأرض ، ولتسمع ممالـكها ... ماذا يقول لها الرعد الذى قصفا ؟ [٣]
(شرائع الخـير) يلقبها محببـة ... (شيخ النبيين) يبغى البر واللَّـطَـفـا
(النـاس من آدم) والبغى مهلـكة ... فليتق الله منهم من قسا وجفـا
قل للألى خطبوا الأقوام أو كتبوا ... دعوا المنـابر والأقـلام والصحفا

احمد محرم

(١) الشعف : رءوس الجبال ، جمع شعفة . (٢) ائتنف الشيء بمعنى استانفه ، أى ابتدأه .

(٣) دعا النبى عثمان بن طلحة ففتح له الـكعبة ، فدخلها معه ومع بلال وأسامة بن زيد وصلى فيها ركعتين ، ثم خرج فوقف على بابها وقال :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم خطب خطبـة طويلة منها : يامعشر قريش ، إن الله أذهب عنكم نخوة الجـاهلية وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم ، وآدم من تراب ، وتلا قوله تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ثم قال : يامعشر قريش : ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت ـ وأول من قال ذلك سهيل بن عمرو ـ فقال الرسول الـكريم : أقول كما قال أخى يوسف « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لـكم وهو أرحم الراحمين » اذهبوا فأنتم الطلقاء . . فخرجوا وكأنما نشروا من القبور ، ثم أسلموا .

وذكر فى هذه الخطبة بعض الأحـكام ومنها : لا يقتل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا يجمع المـرء بين المرأة وعمتها ، ولا بينها وبين خالتها ، والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع محرم ، ولا صلاة بعد العصر ، وبعد الصبح ، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر ، ثم قال : أيها الناس : إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ... الى آخر ما قال صلوات الله وسلامه عليه .

مكتبتنا العربية

معترك الفلسفتين

دراسة القوى الباطنية للانسان

ذاكرة العقل الباطن وسواها من الحواس الباطنة يثبت خلود الروح

يعيش أكثر الناس حياتهم كلها لا يعنيهم غير أجسادهم ، كأنهم أشباح لا أرواح لها ، على حين أنهم لو ألقوا نظرة على ما كشفه العلم من خصائص الروح ، لرأوا أنهم يهملون خير ما أتيح للانسانية بلوغه من المعارف الصحيحة التي فتحت للعقول كُوًى الى مدارك جليلة الشأن ، تعرج بالقلوب الى مكانات رفيعة من السمو الذى أُعد للنفس البشرية أن تصل اليه .

ونحن فى متابعتنا ارتياد هذه المناطق العلمية ، نرجو أن نصل بالقارىء الى ما لا يسع إنسانا أن يجهله من هذه الناحية فى هذا الزمان الذى يحاول الماديون فيه أن يجدوا لهم موئلا فى الشرق ، بعد أن دُحروا فى الغرب ودالت دولتهم فيه .

نريد اليوم أن نأتى على ما أثبته العلماء عمليا من وجود ذاكرة للعقل الباطن تعى كل ماجل وقل مما يعرض لها ، حتى ولو كانت إحدى الحواس تتأثر به فى غفلة من العقل العادى عنه .

هـذه الذاكرة الباطنة تلاحظ فى البسيكولوجيا الطبيعية ، وفى البسكولوجيا المرضية ، وهى تكون على أكمل ظهور فى الثانية ، فمن أمثلة الأولى ما يحدث إذا أصيب الانسان فجأة بخطر الموت من عارض شديد الخطورة ؛ فان الانسان فى هذه الحالة يذكر كل ما عمله وما قاله وما قيل له فى مدى حياته الطويلة ، يمر عليه كأنه على شريط سينمائى ، حتى ما كان منها نافها ولا وجود له فى الذاكرة الطبيعية . وقد حدّث جميع الذين غرقوا ثم أعيدت لهم الحياة بوسائل طبية قبل أن تفارقهم الروح ، بأنهم عند ما شارفوا الموت تحت الماء ، رأوا جميع ما عملوه وقالوه أو رأوه ماثلا فى ذاكرتهم كساعة حدوثه .

وأما أمثلة الذاكرة الباطنة فى الحالات المرضية ، فنها ماحدث للعلامة (ديلبوف) ، وذلك أنه رأى فى حلم مرتبك ذات ليلة نباتا وبجانبه اسمه Asplenrum ruta muraria ولم يذكر أنه عرف هذا الاسم قط ، ولا سمعه من أحد ، فأخذ يبحث عن سر هذا الأمر فوجد بعد جهد جهيد أنه قبل هذه الرؤيا بسنتين كان يتصفح مجموعة صور نباتية ، فوقع نظره منها على هـذا النبات وعلى اسمه ، ولم يوردها على ذاكرته بعد ذلك حتى رآها فى نومه .

الذاكرة الباطنة فى أثناء النوم المغناطيسى :

إن هـذه الذاكرة فى أثناء النوم المغناطيسى قد رأى منها المجربون عجبا ، فانها لا تدع صغيرة ولا كبيرة مما للمنوَّم أو عليه إلا أحصتها لم تفلت منهـا شيئا ، فاذا انتقل المنوَّم فى

مكتبتنا العربية

نومه سواء بسبب غير معروف أو بإيحاء المنوِّم الى ماض بعيد من حياته ، ذكر كل ما حدث له أو منه ، وظهرت نفسيته على ما كانت عليه فى ذلك العهـد ؛ وقد برهنت تجارب الأستاذ (بيير جانيه) المدرس بجامعة السوربون وتجارب الأستاذ (دوروشا) ، مدير كلية الهندسة الفرنسية ، على صحة هذا الأمر بما لا يحتمل الشك .

وقد دلت هذه التجارب على أن المنوَّم لو دُفع به الى عهد ماض من حياته أتى بذكريات عن ذلك العهـد كان فى أثناء يقظته لايذكر منها شيئا ؛ فقد ذكر الأستاذ (بيتر) Pitres فى كتابه (الهستريا والنوم المغناطيسى) حادثة شاهدها بنفسه ، وهو أنه نوَّم مريضة تدعى البرتين م . ودفعها الى عهد الطفولة ، فتكلمت برطانة مقاطعة (سانتونج) من فرنسا ، وكانت نسيتها بعـد ما كبرت ولم تذكر منها شيئا . قال الأستاذ (بيتر) : « فاذا رجونا (ألبرتين) وهى فى تلك الحالة أن تكلمنا بالفرنسية (وهى اللغة تتكلمها وهى يقظى) أجابت برطانة (سانتونج) بأنها لا تعرف لغة السادة ساكنى المدينة » .

وقد اشتهر من هـذه التجارب ما شاهده الأستاذ فلورنوا Flournoy المدرس بجامعة جنيف بسويسرا أن وسيطه المنوم كان يتكلم فى أثناء نومه بالسانسكريتية ، وهى الهندية المقدسة ، وهو لا يعرف عنها كلمة واحدة فى أثناء يقظته . وقد أحفى الأستاذ فلورنوا فى البحث فلم يهتد الى علة معرفته هذه اللغة (راجع كتابه : من الهند الى الكوكب مارس) Des Indes à la planète Mars .

فلما اطلع الباحثون فى الروح على هذه التجربة عللوها بعلة روحانية ، ولكن الأستاذ فلورنوا ، الذى كان لا يعتقد بوجود الروح ، اكتفى بالقول بأنه عجز عن تعليلها بعلة طبيعية .

* * *

وقـد عقب الدكتور (جوستاف جوليه) فى كتابه (من اللاشعور الى الشعور) على هذه المشاهدات وأمثالها بقوله :

« الأمر الذى يدهش الباحث فى دراسته بسيكولوجية العقل الباطن ، إذا أضاف الى هذه الدراسة شيئا من الروح الفلسفية ، هو أنها لا تتفق وأى قانون فيزيولوجى معروف ، وترد عليه حتما على الدوام هذه المسألة وهى : لماذا وكيف يكون القسم الأعظم قيمة من الشخصية الانسانية عاطلا من وراء حجاب ؟ ولمادا وكيف يكون شعور الانسان وإرادته ، اللذان لا تكون شخصيته كاملة إلا بهما ، يفلت منهما أكبر قسم من هذه الشخصية ؟ إن هـذا الأمر من الغموض بمكان ، سواء أكان من ناحية الذاكرة الخفية فى الانسان ، أم من ناحية النفسية الخفية فيه أيضا . فما يعتبر من المحال فهمه فيزيولوجيا هو : كيف تكون الذاكرة العادية الخاضعة للارادة ، ولقيادة الشخصية ، فى هذه الحالة السيئة من الضعف والخيانة ، على حين أن

الذاكرة الباطنية التي لا تتصل بها إلا عرضا ، أو فى حالات غير طبيعية أو فوق طبيعية ، تظهر على هذا الاتساع العظيم ومنزهة عن الخطأ ؟ » اهـ .

وفى هذه المناسبة نأتى على ما كتبه البسيكولوجى الكبير (إرنست بوزانو) فى كتابه الجليل طرح الروح للجسم « La Bilocation » قال :

« وعلى ذكر ما يتعلق بالذاكرة نقول : إن الفيزيولوجيين اكتشفوا منذ زمان قصير ، بأنه فى مقابل الذاكرة العادية ، توجد ذاكرة كاملة شاملة لجميع ماضى حوادث الانسان ، ولكنها كامنة فى ثنايا شخصيته الباطنة . فهذه الذاكرة من الغوامض التى لم يستطع الفيزيولوجيون تعليلها ، ولم يستطع واحد منهم من الناحية البيولوجية (أى الحيوية) ، أن يفسر وجود خاصة عجيبة كهذه الذاكرة الباطنة ، قُدر عليها أن تبقى على الدوام كامنة فى الشخصية الانسانية لا ينتفع صاحبها بها ، وهى مشكلة ليس لها موجب إذا اعتبرت لهذه الذاكرة الكاملة منفعة فى حياة للانسان بعد هذه الحياة الأرضية ، وهو قول مشروع ، وخاصة إذا أضفنا اليه أنه توجد فى العقل الباطن خصائص عجيبة أخرى ، لا ينتفع بها الانسان أقل انتفاع فى حياته الأرضية ، لأنها كامنة فيه وقد مُنحها بكرم عظيم .

« وما دام الأمر كما ترى فيستنتج منه أن هذه الخصائص المنوعة يجب اعتبارها كما هى عليه فى الواقع ، أى أنها خصائص روحية موجودة على حالة الكمون فى الشخصية الانسانية الباطنة ، ومنها تستطيع أن تسطع وتنمو فى بيئة مناسبة لها بعد موت الجثمان ، فان وجب أن يكون هذا الاستنتاج لوجود هذه القوى الخارقة للعادة صحيحا ، فيكون من المعقول أيضا استنتاج هذه النتيجة عينها بالنسبة للذاكرة الباطنة الكاملة ...

« ولأجل تكميل وتقوية ما قلته هنا أخيرا ، يجب أن يضاف اليه أنه لأجل التدليل على وجود الروح الانسانية وخلودها ، يتحتم أن يكون موجودا على حالة الكمون فى الشخصية الباطنة للانسان ، خواص روحية تامة التكوُّن ، وذلك لضرورتها إذا كان مقدرا على الروح أن تعيش فى بيئة مناسبة لها بعد تجردها عن الجسم ، لأن هذه الحواس الروحية لا يمكن أن توجد طفرة فى حالة الموت . ويستنتج من ذلك أن هذه الحواس الروحية ، مضافة الى الذاكرة الكاملة ، إذا لم تكن موجودة قبل الموت ، فيجب حتما أن نستنتج من ذلك أن الروح تفنى بفناء الجثمان . ولكنها موجودة وقد بلغنا الشأو البعيد من إزالة جميع الشكوك الخاصة بوجود هذه الخصائص ، بلغناها علميا وبطريقة لا تحتمل الدحض .

« وهذا الاستنتاج صحيح الى حد أن جميع الاخصائيين فى هذه المسائل ، لا يستثنى منهم واحد ، على اتفاق تام فى تأكيد ذلك ، مستندين على قاعدة المشاهدات المحسوسة » ؟

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

قدامة بن جعفر

ومدرسة النقد الادبى

عرض وتحليل لـكتاب « نقد الشعر »

هل اخترع قدامة علما ؟

نسب بعض الـكاتبين الى قدامة أنه واضع علم الحساب ، ولا شك أن هذه دعوى منشؤها ، كما سبق ، نبوغه فى هـذا العلم ؛ أما البديع ـ وهو ثانى علمين قيل عن قـدامة إنه شريك فى وضعهما ـ فقـد اتفق الـكتاب على أن أول واضع له ابن المعتز الخليفة العباسى المتوفى سنة ٢٩٦ إذ وضع كتابا سماه البديع ذكر فيه سبعة عشر نوعا (كتاب المرحوم الأستاذ محمود مصطفى حـ ٢ ص ١٨٩) ثم جاء قدامة فى كتاب نقد الشعر فذكر عشرين نوعا توارد مع ابن المعتز فى سبعة منها وانفرد بثلاثة عشر ، فقدامة إذن ثانى اثنين وضعا البديع .

يذكر ابن المعتز فى كتابه (وقد طبع مرارا) أنه لم يسبقه بذلك أحد ، وأنه لم يستوف كل الأنواع ، وأباح لمن يأتى بعده أن يزيد عليها ما شاء ، وأن يسمى ما جاء به بأى اسم أحب . ويقول الأستاذ العبادى عن تفوق قـدامة فى اللغة : « لا تعجب من توافره لرجل يعد ثانى اثنين وضعا عـلم البديع » (ص ٣٩ مقدمة نقد النثر) . لم يخالف أحد فى هـذا لأن نصوص كتابى ابن المعتز وقدامة صريحة فى هذا ، وقد نقدها كثيرون من العلماء والأدباء ولم ينكروا عليهما ذلك .

على أن الأستاذ الـكبير الدكتور زكى مبارك لم يرتض هذا الـكلام ، وهو مشغوف بالثورة على مثل هذه القضايا التى يعتبرها مبنية على التسليم بما قيل ، فقد قرر أن البديع كان معروفا من أيام الجاهلية وقال : « ولـكن ما عرف عن العرب من إهمال التقييـد والتدوين لشيوع الأمية بينهم أضاع علينا معرفة من اهتموا اهتماما جديا بتدوين البديع ، فـكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الـكاتبين فى هذا الفن الجميل » . ثم يلحق ما قيل عن قدامة بما قيل عن صاحبه (النثر الفنى فى القرن الرابع ٥٦ جـ ١) . والدكتور يستدل بأشياء :

١ — ماجاء فى زهر الآداب (جـ ٤ ص ١١٤) وهو « قال أبو بكر الصولى : اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند ابن المعتز وكان يتحقق بعلم البديع تحققا ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته ، فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شعبا من شعابه ، وأرانا أحسن ما قيل فى بابه » . ثم يقول : « فالمسألة إذن هى أن ابن المعتز كان يدعى التفوق فى علم البديع الذى كان معروفا » .

مكتبتنا العربية

٢ — قوله : « ومن الصعب أن نقبل سكوت كتاب العرب وأدبائهم نحو قرنين عن هذا الفن حتى يجيء هذا الأمير المترف فيؤلف فيه » .

٣ — ماذكره صاحب الأمالى (ج ١ ص ١٣٣) فى حديث خنافر الحميرى من وصف القرآن بأنه « ليس بالشعر المؤلف ولا السجع المتكلف » ، فهذا الكلام ـ الموضوع بلا شك ـ يدل على أن الرواة يفهمون أن الناس لعهد النبوة كانوا يميزون السجع المطبوع من المصنوع ، والسجع من فنون البديع .

أما دعوى الدكتور أن أناسا دونوا البديع قبل ذلك ثم ضاع هذا الأثر فغير مسموعة ، لأمور :

(ا) أنها من جهة البحث لا دليل عليها . (ب) أن جميع مظاهر النهضة العلمية والحركة الفكرية منذ بدء الاسلام قد سجل كل أو بعض آثارها وليس من بينها ذكر للبديع . (ج) أن عدم وجود كلمة بديع بالمعنى الذى أراده ابن المعتز طوال العصرين الأموى والعباسى الأول ـ وهما ممتلئان بمواقف النقد بين الشعراء وأمام الخلفاء ـ دليل قاطع على صحة ما نسب لابن المعتز وقدامة . (د) أن ابن المعتز وقدامة ذكرا فى كتابيهما أنهما واضعا هذا العلم ولم يعارضهما فى ذلك من جاء بعدهما من فحول العلماء وأساطين النقاد ، على كثرة النقد والتجريح فى زمنهما .

ولو قال الدكتور إن هذا الاسم كان معروفا بدلالته اللغوية على الحسن الجميل من الخطب والأشعار ، لكان كلامه أدنى الى القبول . ولنعرض الآن لأدلته التى أقامها :

أما الأول : فأول ما يسبق الى الذهن من كلمة « دعواه » أنه كان يدعى اختراع البديع ، وإن قلنا غير ذلك فيحتمل أن يكون هذا الجدل بعد اختراع ابن المعتز لهذا العلم ، وأنه كان يجمع الأدباء اليه ليُدلِ عليهم باختراعه الجديد .

وأما الثانى : فساقط من نفسه ، لأن العلوم لم تكن قد اكتملت الى هذا الوقت ، والمسألة مسألة اصطلاح وتسمية لأنواع الجمال الأدبى . والملحوظ فى تعقيب الدكتور أنه يستكثر على الأمير المترف البحث فى مثل هذه الأمور . على أن المسألة بالعكس فأن من تهيأت له أسباب الترف كان هدفه السير وراء نواحى الجمال فى أى شىء ، خصوصا وابن المعتز أديب ممتاز وله كثير من المؤلفات .

وأما الثالث : فلا يدل على أكثر من أن العرب كانوا يعرفون كلمة السجع ، وهناك حديث صريح فى هذا وهو قوله صلى الله عليه وسلم لبعض مخاطبيه : « أسجع كسجع الكهان ؟ »

وعلى هذا فاننا نستطيع الاعتماد على ماقاله المتقدمون فى هذا ، حتى يستطاع تغييره بأدلة واضحة .

مكتبتنا العربية

أسلوب قدامة :

لقدامة أسلوب رصين هادىء يجمع الى سلاسته وسهولة عبارته وإيجازها ، كثيرا من عمق التفكير وغزارة المادة . وعلى رغم إحاطته التامة بمفردات اللغة شاردها وواردها ، فانه عذب الألفاظ سهل التركيب حسن الارادة لا تكاد تلمح فى عبارته كلمة حوشية ، أو لفظة نابية ، هذا إلى تسلسل فى الترتيب وارتباط فى الجمل ، ومع هذا فالمنطق دائما يطل برأسه من ثنايا كتابته والفلسفة تضىء بمصباحها كلما لاح لها موضع ، وهـذه قدرة من شيخ الـكتاب وصيرف الـكلام . ولعل الذى دعا قدامة الى عدم التنسيق فى كتاب نقد الشعر أنه يكتب بأسلوب علمى كما قال الأستاذ العبادى ، وكما نص هو على ذلك فى صدر المنزلة السادسة من كتاب الخراج ، وهذه الطريقة تجعل الـكتب قريبة التناول للمتعلمين سهلة الدراسة عليهم .

ولنأخذ الآن فى درس كتابه نقد الشعر ، بعد أن قدمنا شخصيته وإن كنا لم نوفه حقه كما قدمنا ، ونامل أن تواتينا فرصة لذلك فى أقرب الأوقات .

كتاب نقد الشعر

كتاب صغير الحجم كبير الفضل ، قليل اللفظ كثير المعنى ، ليس من طبقة ماسبقه من الـكتب لأنه بدأ عهد التخصص فى البحث والتأليف ، ولقد كان مؤلفو الـكتب قبله يتركون لقلمهم العنان يجول فى كل فن ، ويقتبس من كل زهرة ، ويقطف من كل جنى ، حتى جاء قدامة وبدا هذا النوع من التأليف الذى نستطيع أن نقول بـلا شك إنه من أعمال الفـكر المنظم الذى خلقه النهل من تلك الثقافة الجديدة التى أنتجها امتزاج الثقافات العربية واليونانية والفارسة والهندية فى هذا العصر ، فنحن أمام كتيب كثرت محاسنه وجلت فضائله ، وإذا قرأناه فـكأنما نسير فى روض ممطور ، ونمشى على در منثور ، وإذا تصفحناه فان إطالعنا غير زهر الرياض ، ونضارة الفياض ولن نشم منه إلا أريج العنبر والمسك الأزفر .

تصحيحات

عبد السلام أبو النجا سرماله

فى العدد السابق :

ص	س	
٦٥	٢	سلامين
٦٥	٥	فى القصائد الهوميرية والملاحم الإيرانية والهندية .
٦٥	١٥	« L'absolu »
٦٧	٨	هيرا كليت
٦٧	٨	الفلسفة الهندية ؛ الأولى لما عندها الخ .

فى هذا العدد

١٢٢	٣	جلالك
١٢٢	١٩	وعيش
١٢٣	٢١	ووصمت (بدل : وأوعدت)